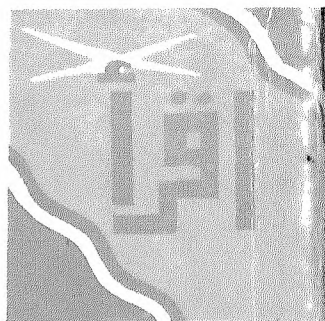


د. سمير محمد خواسك

فى بلاد العبابدة



اَقْرَأْ

قصدنا أولئك ككل شهر
١٩٨٣ - ١٥ نوفمبر ١٩٨٣

رئيس التحرير أنيس منصور

د . سمير محمد خواساك

فنى بلاد العبابدة

الطبعة الثانية



تصميم الغلاف : شريفة أبوسيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع .

الجزء الثاني

إلى الذين يقضون أجمل سنى عمرهم فى مجاهل
الصحراء ، بعيداً عن المدينة والأضواء ، متقلبين بين السهول
والجبال ، يعملون بإيمان وصمت . . فى اكتشاف الأرض
المجهولة ، باحثين فى أسرارها ومنقبين عن كنوزها ، من أجل
مزيد من القوة والمجد لوطنهم . . مصر العظيمة . .

بداية الرحلات

بدأت هذه الرحلات في إحدى أمسيات الخريف عام ١٩٦٢ . تحرك القطار من « محطة مصر » متجهاً إلى الجنوب . كنت أجلس وحدي في غرفة صغيرة بعربة النوم . أخذت أتأمل اللافتة الكبيرة التي كتب عليها « الجيزة » وهي تتباعد ببطء . هل هذا القرار الذي اتخذته ذات يوم من الأيام كان حقاً قراراً صائباً أن تكون مهنتي هكذا ؟ . إن مهنة « الجيولوجي » مهنة شاقة ، ونصيب صاحبها من المكاسب المعتادة في الحياة قليل . يقضي الجيولوجي حياته في اكتشاف الأرض المجهولة . ويظل هو نفسه مجهولاً ، حتى مهنته . . لا يعرفها الكثيرون .

تبدأ رحلة الجيولوجي عادة من نهاية العمران ، عليه أن يصبر ويثابر ولا يشبط من عزيمته تعاقب السنوات بدون نتائج تذكر ، وأن يشجع نفسه بنفسه ويمشي في الأرض ، إلى أن يأتي يوم يكتشف فيه إحدى المناطق التي تحتوى على ثروة معدنية

هامة أو تحتوى على البترول ، فتنشأ مدينة صناعية فى مكان الاكتشاف .
وقد يكتشف المياه فى مكان بالصحراء ، فيتحول هذا المكان المجهول إلى مكان
معلوم . . يكرمه الإنسان . . ويشرفه العمران . وتتحول الكثبان الصفراء إلى أرض
زراعية خضراء ، وتُخلَق القرى والنجوع . . يأتى إليها الناس من كل صوب ،
وتُبنى المدارس والمحاكم ، والمستشفيات والجوامع والكنائس ، وربما يظهر فى
المكان الجديد شخصيات كبيرة ، ومناصب هامة ، ورجال مشهورون ، ويسمى من
اكتشفه هو المجهول ، فهو فى العادة يناديه ويلدبه لاكتشاف مكان جديد .
ويظل هكذا هائماً فى القفار . . هذا هدفه وهذه رسالته .

* * *



بقية المراسي جده في كنف الارض المروية وعلى هو نسه جده
لا يربط الكورن

إلى بلاد العباددة

طرق باب غرفتي بالقطار زميلان يسافران معي لأول مرة إلى تلك البقاع التي
لأندرى عنها شيئاً . . وقالوا إن ميعاد العشاء قد أؤف ، فذهبنا جميعاً إلى عربة
الأكل . وعلى المائدة كان حديثنا عن بلاد العباددة التي نحن إليها ذاهبون ، ترى
من هم العباددة هؤلاء ؟ . . وهل هم من الأنصار أو ممن يميلون إلى الشر؟ وماهى
عاداتهم وتقاليدهم ؟ ، وماذا يأكلون وماذا يشربون . . وأى زى يلبسون ؟ وهل
يسكنون البيوت أو الخيام ؟ ، وهل هناك محلات وأسواق ؟
تقع بلاد العباددة فى بقاع صحراوية مافى ذلك ريب ، ولكن أى صحراء
هذه ؟ . . أهى رملية أم صخرية ؟ وهل فيها حيوانات وزواحف ؟ وهل الحيوانات
مفترسة والزواحف سامية ؟ . وماهى أنواع الطيور هناك ؟ .
عُدت من عربة الأكل فوجدت عامل القطار قد حول الأريكة الكبيرة إلى

سرير صغير. هانغن أولاء نقرب من « المنيا » سيصل القطار إلى قنا في مطلع
 الفجر. . لاداعى للقلق فإن المفتش سيطرق الباب عند مشارف محطة الوصول .
 ولكن مهلا . . هل « قنا » هى غاية الرحلة ؟ . لا . . بل هى بدايتها . وربما
 لاتكون البداية هى قنا . . قد تكون مدينة القصير ، فكما قلنا إن رحلة الجيولوجى
 تبدأ من حيث ينتهى العمران . . أى عمران . . ولو كان طريقاً من الأسفلت أو
 خط سكة حديد ، أو طريقاً صحراوياً أو ريفياً أو خطأً من أحمدة التليفونات .
 وقفنا مع أول خيوط النهار في ميدان محطة قنا ، وتقدم منا رجل عرفناه وعرفناه
 حتى قبل السلام . عرفنا الرجل لكوننا ثلاثة من الغرباء ، وعرفناه بعربته
 « الحكومة » وهى الوحيدة الموجودة بميدان المحطة في ذلك الوقت من السحر . قال
 'ن اسمه « محمد صقر » ، وأنه جاء ليوصلنا إلى معسكر البعثة الجيولوجية الموجود
 بعيداً في الصحراء ، وذهب بنا إلى مقهى الجبلوى وتركنا هناك قائلاً إنه سيعود
 إلينا بعد وقت قليل .

وقد تبين لنا أن الوقت القليل في مفهومه عبارة عن تسع ساعات ، ذهب
 خلالها يمشى في أسواق قنا يملأ سيارته بالخضروات والخبز والفاكهة واللحوم
 والعلب المحفوظة والدخان والسجائر والسكر والشاي ، وطلبات متناثرة أخرى
 مكتوبة في عدة « كشوفات » ، ليوصلها إلى رجال البعثة الجيولوجية . . في المعسكر
 البعيد ، وبالطبع لم يستغرق شراء هذه الطلبات وترتيبها في السيارة كل هذا
 الوقت ، فقد أنفق باقى النهار يرحل مع أصدقائه . فهذه فرصته للتنزه في المدينة بعد
 طول غياب في الصحراء .

غادرنا « قنا » في الأصيل متجهين إلى سفاجة على طريق يصل بين وادى النيل
 وساحل البحر الأحمر. الرمال تغطى الوادى الفسيح وتكسو الأرض المحيطة حتى
 نهاية الأفق ، لا يقطع رُتوب اللون الأصفر إلا خط « الأسفلت » الأسود اللانهائى

الامتداد . ولايغير من هذا المنظر الريب إلا وجود تلال صغيرة تظهر بين حين وآخر .

قال محمد صقر . . إنه كان باستطاعته أن يذهب بنا من طريق قريب يصل بين قنا والقصر مباشرة ولكنه طريق غير مرصوف ، وسوف تشعرون فيها بعد أيها الأساتذة بقيمة الأسفلت عندما تجربون الصحراء .

وقال صقر : إن المعسكر الرئيسى للبعثة الجيولوجية موجود فى وادى عسل ، وإن الدكتور رئيس البعثة متغيب فى إجازة بالقاهرة ، وإن المسئول عمّن فيها هو نائبه الجيولوجى حسن عساف . وهل هذه أول مرة تذهبون فيها إلى الصحراء ؟ ، وإننى ماجئت إلى هنا إلا لتحقيق رسالة سامية فى الحياة ، فأنا ياسادة عندى ست بنات ، وغايى من هذه الدنيا أن أعلمهن خير تعليم ، وفى موسم النتائج من كل عام حينما يصلنى نبأ نجاح إحداهن وأنا فى تلك الصحراء ، أحس أن متاعى فى الجبال قد زالت ، وأشعر بأن الله قد عوضنى عن حرمانى من المعيشة معهن بأن كتب لهن التوفيق ، فالعلم خير سلاح للفتاة . . يحميها من كل مترلق ويقوى من شخصيتها ، ويكرم من شأنها ، وهل تصدقون أن أكبر بناتى قد وصلت إلى الثانوية العامة وأننى أتمنى أن تدخل كلية العلوم وأن تتخرج جيولوجية . . وأن تكون أول من تعمل فى هذا المجال من بنات جنسها ؟ .

وقد لاحظت أن الشيء الذى يشد الرجل إلى الصحراء ليس تلك الره فقط ، بل إن حب المغامرة يجذبه إليها بالمثل ، فهو سعيد لأنه رأى من الجبال يره أحد قبله ، وأنه مشى فى أودية ربما لم تطأها قدم إنسان من قبل . ربما السبب الرئيسى فى مجيئه إلى الصحراء بادية الأمر هو تحقيق تلك الرسالة الساء ولكن حب خوض المجهول قد تمكن من نفسه ، وأصبحت المغامرات اليومية شهدا مع المستكشفين . . جزءا من شخصيته . وقد شاء الله أن يلازمى هذ

الرجل منذ ذلك اليوم خمسة عشر عاماً جاب معى خلالها أماكن مجهولة ومتباعدة في الصحراء المصرية ، وكنت أرى نتائج كفاحه وأمنيته تتحقق مع مرور الأعوام . . بنجاح النبات وفترجهن الواحدة بعد الأخرى ثم زواجهن الواحدة بعد الأخرى ، ومع كل أمنية تتحقق يزداد الرجل شباباً ونشاطاً . . وحباً للصحراء وتعلقاً بالجبال . وفي سن الشيخوخة . . رزقه الله بالولد على غير انتظار ، وكان نعمة الله عليه بهذا الولد هي مكافأة له على حسن تربيته للنبات .

أخذنا طريقنا على ساحل البحر الأحمر في اتجاه الجنوب من سفاجة إلى القصير ثم غادرناها واستمر سفرنا في نفس الاتجاه إلى أن وصلت السيارة إلى « رجم » من الأحجار المرصوفة على جانب الطريق لاي زيد ارتفاعه على نصف متر ، فتوقف صقر قائلاً : هذه العلامة وضعناها لكي تدلنا على مدخل وادي عسل . ونزل من سيارته وأطفأ نورها وأخذ ينظر بعيداً في ظلام الصحراء حتى يستدل على اتجاهه ، ثم تركنا الطريق المرصوف وبدأت السيارة « اللاندروفر » تسير في سهل منبسط عظيم على طريق صحراوي غير واضح المعالم متجهة إلى الغرب ، تجرى في الظلام وتمرق بين « المطبات » بسرعة وكفاءة وعي ، فقد صممت « اللاندروفر » خصيصاً للصحراء ، ويوم أن جاء « مونتجومري » إلى مصر عام ١٩٦٧ لزيارة مواقع الحرب العالمية الثانية . . لم يطلب إلا سيارتين فقط من هذا الطراز . لاحت بقعة من النور في الأفق البعيد من الصحراء المظلمة قال صقر إنها معسكر البعثة الرئيسي .

* * *

استقبلنا حسن عساف ، شاب . . باسم الوجه . . طويل اللحية والشعر . . يلبس ملابس العمل . دخلنا خيمة بها أربع مناضد كبيرة متلاصقة وحولها مقاعد مختلفة الألوان وقد ثبت « الكلوب » في سماردق في عمود الخيمة ، قال حسن إن

هذا المكان يطلقون عليه « الميس » وهو مخصص لكي يتناول الطعام فيه رئيس البعثة والجيولوجيون ومن يحضر إليهم من ضيوف ، أما « الأفندية » فلهم « ميس » آخر ومطبخ مستقل . ويفضل السائقون والعمال تجهيز طعامهم بأنفسهم في خيام نومهم كل على انفراد ، وقد يشترك الأقارب منهم أو البلديات في إعداده وتناوله . وقال إنه جيولوجى . . تخرج من جامعة عين شمس منذ عامين قضاها في هذه المنطقة من الصحراء الشرقية . وإن الدكتور رئيس البعثة سوف يعود قريباً من القاهرة ، وإن موسم العمل لم يكن بلعد ، فالعمل في الصحراء يبدأ من نوفمبر وينتهى في مايو لتعذر الرحلات بين الجبال في أشهر الصيف . وإن مناخ المنطقة قارى وقد يسقط المطر على هيئة رشة أو أكثر ، مرة واحدة كل بضع سنوات . وأجاب عساف على سؤال لى قائلا : إن هذا المعسكر الذى نحن فيه هو معسكر رئاسة البعثة وله فرع في وادى العطشان يقيم فيه الجزء الأكبر من العمال لأنه منطقة عمل رئيسية ، كما يوجد فرع آخر في وادى الكريم .

وقال إن الرجال هنا ينقسمون إلى أربعة أقسام رئيسية : رجال من الوجه البحرى ، ورجال من الصعيد وبالذات من محافظة قنا ، والجزء الثالث من سكان البحر الأحمر وخاصة مدينة القصير ، وأما الجزء الرابع فإنهم من العباددة . أهل تلك المنطقة وهم يرجعون فى أصلهم إلى شبه الجزيرة العربية ويتنسبون إلى جدهم الأكبر الزبير بن العوام رضى الله عنه ، يعيشون على الرعى ويجربون المنطقة من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن العشب والماء . وقد استخدمنا عمالاً مؤقتين منهم . . ولنا صلات دائمة بكل العباددة سواء منهم من يعملون عندنا كعمال أو من يبرون علينا أثناء الرعى والترحال .

وقال عساف إننا نرسل سيارة « لورى » مساء كل أربعاء لكي نحضر الخضروات واللحوم والبقول والخبز من قنا وتعود مساء الخميس ، فيكون صباح

الجمعة راحة للرجال يطهون فيه طعامهم ويغسلون ثيابهم .

وسأله : والماء ؟

قال :

— حسب التساهيل ، نرسل « اللورى » مرة كل أسبوع ليشتري الماء من القصير
ومعه تعليقات بأنه إذا لم يوفق فعليه بالذهاب إلى قنا لتعبئة الخزانات التي على ظهره
من مياه نهر النيل مجاناً .

ثم سأله :

— ولماذا يفشل في الحصول على الماء من القصير ؟
— لأن سكانها لا يصل إليهم الماء العذب من النيل . بل يعتمدون على محطة
صغيرة لتنقية ماء البحر من الأملاح عن طريق التبخير ثم التكثيف ، ويوم أن
تتعطل إحدى الماكينات ، يصبح البلد في أزمة . . فلا يتحملون الغرباء .

— والترفيه ؟

— كما قلت لكم . . يوم الجمعة يطهو العمال طعامهم ويغسلون ثيابهم ، وهذا
نوع من أنواع الترفيه ، ثم يلبسون ملابس نظيفة ويصلون الجمعة في جامع
القصير ، والصلاة في الجامع تريح نفوسهم وتطمئن قلوبهم .

* * *

فى وادى عسل

وقبل شروق الشمس كنت أمام خيمتى أتأمل المكان فى ضوء النهار الذى لم يزل خافتاً . الوادى فسيح وممتد . أرضيته مكونة من صخور مفتتة مختلفة الألوان ، تتراوح أحجامها من الحصى الصغيرة إلى الجلاميد . يقولون إن الوادى عبارة عن متحف من متاحف الطبيعة ، توجد على أرضه عينات من جبال المنطقة كلها . وهذه حقيقة ، لأن فئات الصخور التى تنكسر على قمم الجبال المحيطة . . تجرلها السيول من كل فج لتستقر فى الأودية .

تلال صغيرة من الحجر الرملى الأصفر والحجر الطينى . . ومن الإرداز ، توجد متناثرة فى وادى عسل تتخللها صخور بركانية . . كريمة اللون ناصعة . النباتات قليلة وجافة فى الوادى ، هذه النباتات عبارة عن شجيرات صغيرة من الأشواك ، بينها بعض الأعشاب . وتوجد شجرة واحدة فى فم الوادى .

لأنوجد جبال عالية في وادى عسل . . ومع هذا فإن أشباح الجبال الكبرى تلوح في الأفق كأنها قريبة . . وهى في واقع الأمر بعيدة . . غير أن حجمها الضخم وارتفاعها الشاهق يظهرها وكأنها قريبة منك . هذا جبل أبو الطيور ، وهذا جبل أم نقاط . . وأما ذلك الجبل العظيم فإنه « جبل السباعى » الذى سميت المنطقة كلها باسمه تقديراً لضخامته ، وكلها مكونة من الصخور الجرانيتية الوردية ، وهى علامات شائعة ذات أهمية كبرى لمن يسافر فى هذه المنطقة . . حينما يريد أن يحدد موقعه أو اتجاهه أو يفضل الطريق .

معسكر رئاسة البعثة القابع فى وادى عسل لا يؤمن بالاشتراكية ، وربما لم يسمع عنها قط حتى الآن . فالطبقة هى المذهب الذى يعتنقه بلا أى تردد أو حياء . هذا قطاع فى شرق المعسكر مكون من عدة خيام من النوع الممتاز ، ناصعة البياض نظيفة عالية اسمها خيام « ضبطان » . . لا يسكنها إلا الجيولوجيون ! . . تتوسطها خيمة مثبتت على قبتها علم أحمر يسكنها رئيس البعثة ، متى شاء وحضر الى وادى عسل . وفى كل خيمة من تلك الخيام تجد منضدة جديدة حمراء وكرسياً واحداً وسريراً عليه بطاطين نظيفة وصواناً من الصاج ذا ضلفة واحدة ، وتتميز خيمة رئيس البعثة بأن الصوان أكبر والمنضدة أكثر اتساعاً ، والكرسى له ذراعان . ومن بين تلك الخيام . . خيمة يطلقون عليها - كما قلنا - خيمة « الميس » بها ثلاثة تعمل بالبوataجاز وأخرى تعمل بالجاز ، وأربع مناظير مربعة كبيرة متلاصقة حمراء اللون . . حولها كراسى مختلفة الألوان ، ويوجد لرئيس البعثة مقعد خاص به . وفى المساء يلعبون فى تلك الخيمة الورق والزرذ أو الشطرنج . وفى مواجهة خيمة « الميس » على بعد ثلاثين متراً منها يوجد كشك من الصاج اسمه المطبخ ، به بوتاجاز وغلمية وأدوات الأكل . كما توجد خيمة أخرى اسمها « المكتب » بها منضدة رسم كبيرة وأدوات هندسية .



أندلسيون الملة صالحة في الصحراء الشريفة

هذا هو قطاع الجيولوجيين ، أو هو قطاع البكوات كما يطلقون عليه لصعوبة
نعلق كلمة الجيولوجيين .

وأما القطاع الثاني فاسمه قطاع « الأفندية » ويتكون من مجموعة من الخيام
المتوسطة اسمها خيام « طبيب » .

ويتكون القطاع الثالث من خيام صغيرة منتصبة في أطراف المعسكر تخفى وراء
التلال حياة منها وأدباً فهي أسوأ أنواع الخيام ، إذا دخلتها فلا بد أن تنحني لصغر
بابها ، وهي غير نظيفة من الداخل والخارج ، عليها آثار الهباب بسبب الطبخ
بدخلها . . هذه الخيام اسمها « العسكرية » . . يعيش فيها العمال . وتستطيع أن تميز
من بينها بسهولة الخيام التي يسكنها سائقون بأن تجدها شديدة البعد عن باقي
الخيام . . ومتناثرة في الوادي وأمام كل منها سيارة . . خاصة بكل سائق منهم .
وأما خيمة الجامع فهي في مركز المعسكر في مكان فسيح . . مزينة برايات
خضراء .

وكأى مجتمع من المجتمعات الصغيرة . . لا يخلو الأمر من خلافات يومية ، وفي
هذا المكان المنعزل عن المدنية حيث لا يوجد قضاء ، فإن تلك المنازعات تعرض
كل يوم على منطلق عليه هنا . . « مجلس الحكم » . .

مجلس الحكم في الصحراء

ينعقد مجلس الحكم في الصحراء . . وقت الأصيل من كل يوم بطريقة تلقائية . القاضي في هذا المجلس هو رئيس البعثة أو من ينوب عنه إن كان غائباً ، وأما المحلفون فهم زملاؤه من الجيولوجيين والمهندسين وبعض الرجال الأفاضل من كبار السن . وهو ليس مجلساً رسمياً بطبيعة الحال . . بل جلسة يومية وعادية ، يجلس فيها الرئيس كمعادته في ظلال خيمة « الميس » ومعه أصدقاؤه يتناولون شاي الأصيل ، ويحضر إليهم كل من له طلب أو شكوى . .
وأما القضايا التي تعرض على هذا المجلس الودى فهي بالنواذر والملح أشبه . فهذا راع من العباددة يمر على وادى عسل . . فيعرج للتحية والسلام . . طالباً قرية من الماء . . كهديّة له من الغراء .
وهذا عبادى آخر يعرض للبيع خروفاً مكسور الساق بأجنس الأثمان .

وذاك رجل يطلب إجازة فورية بدون سبب واضح ، فيلحظ الرئيس بخبرته أنه
الشعور المضنى الذى يسود بين المغتربين ويطلقون عليه « الاكتئاب » .
وآخر يطلب بطانية لأن الهزيع الأخير من الليل يصبح بارداً كالثلج فى تلك
الأيام .

وهذا رجل من رجال البعثة قادم فى مأمورية من أحد المعسكرات التابعة لها فى
يادى الكرىم ، يشكو من عدم وجود مصلى للعقرب أو الثعبان .

* * *

وتجد شكاوى عديدة سببها المزاح .
فهذا رجل يشكو أحد زملائه لأنه داعبه مساء أمس واختبأ فى ركن مظلم من
الخيمة وقلد فحيح الأفعى ، وما هكذا يكون المزاح .
وشخص آخر له شكاوى مماثلة . فقد ألقى صديق له . . عقرباً مقطوعة الذيل
فى قفاه . . فدعر وظن أن العقرب سليمة الذيل ، وأنها ستلدغه لاجالة فضحك
منه إخوانه حتى استلقوا على الأرض من منظره . . وهو يفتش عن العقرب بين
ثيابه .

وشكاوى ثالثة من شكاوى المزاح ، يقول صاحبها إنه حديث العهد بالصحراء
وإن هذه أول مرة يحضر فيها إلى تلك الأماكن المقطوعة ، يشكو بعض الشبان
الاشقياء ، فقد ألفوا حديثاً بينهم . . قصدوا به إيهامه أنه يوجد فى لم الوادى -
وراء التل الأصفر- كشك يبيع المربطات ويجواره مقهى صغير يقدم الشاى
والبورى ، وقد صدق هذا ولم يعرف أنه المقصود بالحوار . . فشئ وحده مسيرة
ساعة ولم يجد كشكاً ولا مقهى ولا بورى ، وعاد فوجد حشداً من الرجال يرقبونه من
فوق ربوة عالية يلوحون له ويضحكون من سذاجته .

* * *

ويدخل الشيخ عبد الله حانقاً ومعه ورقة كبيرة مطوية . . ويوجه سؤاله إلى رئيس البعثة قائلاً :

- هل تعرف عنى أيها الرئيس أننى ممن يحبون النساء ؟
ويتعجب الرئيس من غرابة السؤال ويؤكد له أن مايعرفه عنه غير ذلك .
ويقول الشيخ عبد الله :
- إن المرأة يأسادة فتنة . . جهالها يخرج الرجل عن عقله ويفضله عن صوابه . .
ويضعه فى قائمة المجانين .

ويسأله الرئيس أن يوجز ويخبرهم بالقصة . فيسقط الشيخ عبد الله الورقة الكبيرة بين يديه فإذا بها صورة لامرأة فاتنة . . شبه عارية ، ويستعيذ البعض من الشيطان الرجيم ، فى حين يتمتم آخرون بعبارات الإعجاب والاستحسان .
ويقول الشيخ :

- اتهمنى الناس بسرقة هذه الورقة . . فقد أعلن بعضهم أن صورة امرأة فاتنة قد ضاعت ، وأخذوا يفتشون عنها فى كل مكان ، إلى أن عثروا عليها فى جيب خيمتى . وماذا يقول أهلى فى الصعيد إن علموا بهذا الاتهام المشين ؟ . وكيف تكون سمعتى بعد ذلك فى قريتى وأنا رجل مستقيم ؟ .

ويطيب الرئيس خاطره . . ويطهئنه من هواجسه بأن أحداً من بلده لن يعلم بهذا الأمر . . ويؤكد له أنه لن يسكت إلا إذا عرف الفاعل الحبيث . . ويغمر أحد الخلفين الجالسين . . من شباب البكوات الأشقياء بعينه إلى الرئيس ، فتدور همهمة وضحكات خافتة ، إذ إن الفاعل هو البك الصغير الذى غمز بعينه ، فقد نجأ الصورة فى جيب خيمة الشيخ وأعلن عن سرقتها ، وأخذ الرجال يبحثون عنها فعثروا عليها بين ملابس الرجل المستقيم . وحفظ الرئيس تلك القضية بالطبع ، وضحك هو نفسه من تلك الدعابة .

وهذه شكوى أكثر جدية . . يدخل بها أحد الرعاة من العبادة . يسلم ويكبر ، ويظل يرفع ثيابه قطعة بعد أخرى ، ويخرج منها في النهاية رُقعة رُقعة من الورق . . يطالعها الرئيس فيجد صعوبة في قراءتها . . لاتساخها من عرق الطريق . ويتطوع أحد المخلفين ويفك خطها .

وبعد فترة من الصمت تطول . . يقرأ مافي الورقة بصوت مسموع : من شيخ العبادة إلى كبير الغرباء . . يبعيه فيها ومن معه ويخصه بالتبجيل والإكرام ، ويشكو له أن أحد رجاله كان يقود سيارة ضخمة حمراء متجهاً إلى جبل « أم خرص » ، ووجد جوالاً فيه فحم وضعه أحد العبادة هكذا في الخلاء ، فالعبادة كلهم أمناء . . ولا يخشى على أى شيء يترك في الأودية . . وسرق السائق هذا الجوال ونسى أن الله سبحانه وتعالى يراه . وفي أى شهر يفعل هذا ؟ ، إنه في شهر شعبان الحرام .

ويستغفر المخلفون ربههم على ما فعل الرجل ، ويقول الرئيس : هذا فلان . . أرسلوا إليه وأبلغوه بأننى قد حكمت عليه بدفع ثمن الجوال مرتين ولو عاد إليها في مستقبل الأيام فسوف يكون لى معه شأن ذو بال .

* * *

والثفت الرئيس فوجد شاباً أسمر نحيفاً . . تحت العشرين ، من إحدى قرى مركز « ففط » بالصعيد ، يجلس القرفصاء على الأرض مستنداً إلى « كنار الخيمة » . كان الشاب ينظر إليه بن حين وآخر ويتردد في عرض أمرماً عليه . فعرف الرئيس بفطنته أنه يريد أن يطلب منه أمراً شخصياً يمنعه حياة من أن يطلع عليه المخلفين . فيغادر الرئيس مقعده ويتنحى بالشاب جانباً . . خلف الخيمة . . وكأنه قرر أن تكون قضيته في جلسة سرية . وبعد فترة يعود إلى مكانه وينصرف الشاب راضياً . . سعيداً كل السعادة ، فقد تحقق حلمه بعد كفاح في الصحراء لمدة

عامين ، فجمع المهر ، وهاهو ذا الرئيس قد قبل أن يتوسط عند خال هذا الشاب ليزوجه من ابنته . . وقد كان الخال رافضاً كل الرفض لشقاوة الولد وعدم اطمئنانه على استقرار ابنته الوحيدة معه . وكان الجميع يعرفون أنه لا رجوع للخال عن موقفه المتحجر إلا لو تدخل رئيس البعثة بنفسه وخطب الفتاة للشاب من أيها .

* * *

وجاء رجل من أقصى الوادى ، ودخل فى الموضوع مباشرة بعد السلام ، وبادر الجالسين بسؤال :

— أفن يذهب إلى الريف كمن يسافر إلى « أم نار » ؟

فيتعجب الرئيس من غموض السؤال ، ويطلب منه أن يفصح عن مراده . فيقول العبادى :

— أعطانى « مراد أفندى » إجازة مقدارها ستة أيام ، صحيح أن العمال لا تزيد إجازتهم عن هذا المقدار ، ولكن يوجد ظلم غير مقصود واقع علينا نحن العبادة من هذا القرار . فزملاؤنا من أهل الريف (يقصد أهل الصعيد) ، يسافرون إلى بلدهم على ظهر سيارة سعتها سبحة الخلاق ، فيصلون فى يوم واحد وبلا أى عناء . وأما أنا فسوف أسافر إلى أهلى فى جبل « أم نار » ماشياً على قدمى ، لأقطع المسافة فى ثلاث ليال . فهل يرضيك أيها الرجل الكريم أننى عندما أصل إليهم ألقى بهديتى من الزاد وما يتبقى من الماء ، وأعود فوراً إلى مكان عملى قبل أن أستريح ، حتى أصل إليه خلال الليالى الباقيات ؟ ! ويتسم الرئيس ابتسامة ذات مغزى عندما يسمع كلمة أستريح ويقول : أنت على حق يا عبدان . . ولك أن تبث ليلة كاملة فى « أم نار » . فيהל الرجل ويكبر ويدعوله بطول البقاء . ويسأله الرئيس : أما من طلب آخر لك أيها الهام ؟ . فيقول : نعم . . أن تسمح لى بركوب السيارة التى ستسافر غداً للبحث فى الجبال ، فأنزل عند جبل العطوى فيوفرون على مسيرة

ليلة على الأقدام ، وأن تأمرلى بأخذ حصتي من الماء عن الإجازة التي سأنتغيب خلالها ، وسأحملها معي في قرية تكون هدية ثمينة لأهلي في « أم نار » ، فندعوك بطول العمر والسلام .

* * *

ويأتى دور قضايا تقسيم الماء ، يعرضها الساقى المكلف بأن يوزعها بين الناس بالعدل . يقول إن فلاناً ينتهز فرصة أن الرئيس أمر بأن يكون الوضوء مجاناً خلال الأشهر الحرم . . أى خارجاً عن الحصص اليومية ، فأخذ يتوضأ عدة مرات في اليوم وكأنه يستحم ، بل يسكب الماء فوق ثيابه رفاهية وترطيباً ، وأن الله لن يقبل وضوءه لأنه ماء حرام . ويقول إنه يعرف رجلاً لم يولوا وجوههم نحو القبلة منذ أن جاءوا إلى الصحراء . . انتظموا في الصلاة بعد هذا القرار وأصبحوا وكأنهم من الأتقياء .

كما يشكو موزع المياه من « عبد الرحمن الذهبي » ، ويتهمه بأنه ينتهك العرف المتفق عليه بأن الكلاب لاتشرب إلا من الماء الذى استعمل أكثر من مرة ، وقد أعطاها اليوم ماءً نقياً . ويثور عبد الرحمن قائلاً إنه حر في حصته . . ولادخل لأحد إن هو أعطى كلابه نصيبه من الماء أو شرب هو من ماء الكلاب ، ثم يحاول أن يستميل الرجال في مجلس الحكم إلى جانبه ، فيشرح لهم أنه لم يقدم الماء لكلاب كبيرة بل للجراء فهي ضعيفة ، وأن حالتها النفسية سيئة منذ أن رأت الثعلب يعث في قامة المطبخ منذ ثلاثة أيام .

* * *

وأما هذا فهو من العبادة ، ماجاء ليعرض قضية أو ليطلب حاجة إنما جاء لكي يقدم اعترافاً .

قال : سافرت في إجازة عيد الفطر المبارك أعاده الله عليكم جميعاً بالظلال

والخيرات ، وبقيت في المعسكر وحدى لأحرسه . والمعسكر لايحتاج إلى حراسة
فبلاد العباددة كلها أمان . ولكن وجودى له فائدة أخرى فإن فامت دوامة هوائية
أو جاء سيل . . أجمع الأشياء المتناثرة أو أشد الخيام .

وزارتنى أمى أيها الرئيس صباح يوم العيد . . جاءت على جملى . . قطعت به
المسافة من وادى القش إلى هنا في ثلاث ليال ، وأحضرت لى معها هدية العيد . .
لحوماً وبعض الزاد . وأمى امرأة عجوز . . فهل أستطيع أن أرجعها بدون أن
أكرمها وأرد إليها بعض إحسانها ؟ ، ولم أجد إلا أن أهديها ثلاث قرب من الماء .
وإننى أعترف إليك بهذا لكى أريح ضميرى ، ولكى تستفيد أمى من الماء ،
وببارك لها الله فيه ويشفيها به ويطفى ظمأها بالقليل منه آمين . . فهل تسامحنى أيها
الأستاذ ؟

ويقول له الرئيس : بل إننى أحبيك ، وأسأحك فيما أعطيت لأمك من قرب
الماء ، فقد أوصى رسول الله بالألم ثلاث مرات ، ولو كنت قد أرجعتها إلى وادى
القش بدون الماء لنالك منى غضب شديد .

ويدخل شاب أبيض الوجه ، بهى الطلعة ، أنيق الملبس ، منسق الشعر ،
يسلم على الرئيس ويقول :

— أشكو إليك الملاحظ حامد راشد فقد ضربنى بالقلم .

ويكتم الرئيس وأصدقاؤه الضحك مراعاة لمشاعر الشاب ، ويرسل فى استدعاء
الملاحظ راشد .

وفى أثناء انتظار وصوله يسأله الرئيس :

— ومن أنت أيها الشاب ؟ ، أنت لاتعمل عندنا ، وإن مظهرك المتأنق لايدل

على أنك ممن يعيشون فى الجبال .

فيتلعثم ويحمر وجهه خجلاً ، ويتطوع أحد الجالسین . . ويشرح للرئيس
قائلاً :

— هذا يأستاذ شاب طموح من أهل القاهرة مهتته حلاق ، جاء إلى بلده
القصير باحثاً عن الرزق ، فاستأجر فيها « ذكناً » بإيجار شهري مقداره عشرون
قرشاً . وبالاتفاق الشخصي مع سائق البعثة . . كان يذهب مرة كل شهر إلى وادي
العطشان في السيارة التي توصل الماء والطعام ، ويعود بعد ذلك حسباً يجد سيارة
راجعة إلى القصير . وفي وادي العطشان يخلق للناس ، ويزين أشكال من هم على
أهبة السفر في إجازة ، ويكتب للباقيين الخطابات التي يودون إرسالها إلى أحبائهم في
البلاد ، وعنده من أسلوب الكتابة ما بهر به سكان وادي العطشان من الصعايدة
والعبادة على حد سواء ، فهو ينمق الكلام وحق الله . . كأنه يصف الشعر ، وله
سجع يخلب الألباب . . وعبارات عن الحب جعلت أجرته ترتفع إلى عتبة
« سجاير » من النوع الصغير .

ويصل الملاحظ . . فيسأله الرئيس :

-- هل ضربت هذا الشاب بالقلم ياراشد ؟

ويجيب الرجل :

— نعم ، ومن حسن حظي أنني لم أجهز عليه ، فقد كاد أن يهلك نفسه ويهلك
معه قوماً آخرين .

ويسأله الرئيس : وكيف كان ذلك ؟

فيقول :

— جاءت من القاهرة إلى قنا ثم إلى القصير سيارة محملة بالفرقعات تقصد
الوصول إلينا في وادي العطشان . وبعد أن وصلت إلى بلدة القصير سألت سائقها
الناس أن يدلوه على وادي العطشان هذا فلم يعرف مكانه أحد ، بل لم يسمع به أي

منهم على الإطلاق . وذهبوا إلى المأمور فأخرج خريطة من الصوان بسطها أمامه فلم يجد لهذا الوادى أى ذكر ، فأرسل إلى خبراء الصحراء . . ولم يعثر أيضاً بينهم على من يرشد الغرباء إلى مكان الوادى المجهول . وتطوع هذا المتحذلق وقال إنه يذهب إليه كل شهر مرة وإنه حفظ الطريق إليه . وركب إلى جوار السائق مختالاً فخوراً كأنه بمسالك الصحراء خبير ، فخرج بهم عن الطريق المعتاد إلى طريق آخر يجهله . علمت بهذا الموضوع مصادفة عندما كنت أجلس بالأمس في المقهى بمدينة القصير ، فقد أخبروني بقيام السيارة يرشدها هذا الأحمق ، وتأكد لي أنهم ضلوا الطريق لأنهم لم يصلوا إلينا في وادى العطشان ، فجهزت سيارة وعدة كاملة وخزاناً من الماء وكثيراً من الطعام ، واقتفيت أثرهم على الطريق المؤدى إلى وادى العطشان ورأيت المكان الذى انحرفوا فيه ، فآثار تلك السيارة هى أحدث ما مر في هذا المكان ، وتعقبت آثارها في أرض الوادى حتى وصلت بعد سفر طويل إلى جبل « أبو الطيور » ، (وهمهم الحاضرون بكلام غير مسموع حينما سمعوا كلمة « أبو الطيور ») . وعثرت عليهم عند سفح الجبل العظيم بجوار واحدة من الشجيرات الثلاث الموجودة هناك .

وقال راشد : ولورأيت منظر الناس أيها الرئيس نائمين في استسلام إلى جوار السيارة لرثيت لحالهم . فما كان مني إلا أن أعطيت الشاب على وجهه قلماً واحداً ، وأنا مثل والده أخاف عليه ومن معه . . خطر الصحراء .
وسأل الرئيس الحلاق : هل يرضيك هذا الكلام الأخير ؟ . . لا تكررها مرة ثانية يا بني ، ولا تمش في الصحراء بدون معرفة وثيقة بالطريق ، فتعرض نفسك ومن معك للهلاك .

* * *

وكنت ترى الرئيس خلال فترة انعقاد الجلسة وحتى الآن هادئاً باسمياً . . مها

كان انفعال أصحاب القضايا . . يتقبل آراءهم ويستمع إلى مشكلاتهم بنفس راضية مطمئنة ، ويجد الحل المناسب لها ببساطة اعتادها من طول عيشه في الصحراء .

وما انزعج قط . . إلا حينما عرضت عليه تلك القضية الأخيرة ، فقد دخل عليه أحد الرعاة يخبره أن شيخاً من شيوخ العبادة يبعث إليه بالسلام ويبلغه أن فلاناً قطع الشجرة الموجودة عند التقاء وادي زيدون بوادي أبو جرادی ، ولم يخش الله في أنها الشجرة الوحيدة بهذا المكان الفسيح وأنها كانت ملجأ للمسافرين يحمون بظلها من هجير الصحراء .

وهب الرئيس واقفاً وقال بحزن . . وشدة لم يعهدا فيه أصدقائه :
- كافر من يقطع شجرة .

وأخذ يتمتم بتلك الجملة كأنه لا يجد طريقة يرثي بها الشجرة إلا التكرار . وجلس مهموماً كأنه تلقى خبراً في عزيز أو قريب ، وخيم الصمت على الحاضرين احتراماً لذكریات الرئيس مع الشجرة المقطوعة ، فهم يعرفون أنها أنقذت حياته ذات يوم من الأيام ، حينما كان حديث العهد بالصحراء . فقد ضل طريقه وهو يبحث بين الجبال في أثناء إحدى رحلات الاستكشاف . . وفقد اتجاهه وأخذ يتخبط بين السهول والأودية ، وأنهكه التعب واستبد به العطش . . وشعر بحلقه جافاً كالخشب . وبأحشائه وكأنها بدأت في الاحتراق ، فأخذ يصيح بأعلى صوته عسى أن يكون قريباً من أى إنسان ، ولم يسمع إلا صدى نداءه تردده الجبال . وبعد لحظات من الصمت سمع صوتاً عميقاً من البعد السحيق يأتي من سلاسل أخرى من الجبال أكثر بعداً ، سمعها ترجع نفس النداء . . وكأنها أصوات ماث من المردة والشیاطین . . أو كأنها أصوات جوقة الفناء . وأبرزت الصحراء ساحتها الخفية التي تكشف فيها عن أنيابها لكل من ينفذ منه الماء . لكن حبه للبقاء شحذ فيه

عزيمة الإنسان ، فأخرج من جعبته صورة كانت قد التقطت لتلك المنطقة من الجو ، وأخذ يرجع النظر فيها إلى أن عثر على نقطة صغيرة سوداء . . موجودة وسط مساحة شاسعة بيضاء . فقام بقوة خارقة كأنه يتحدى بها الجبال ، وأخذ يمشى لا يأبىه لنداء العطش من داخل جوفه المحترق . . فقد كان الإصرار على البقاء يطغى على كل نداء . ونسى العطش وكأنه استغنى مدى الحياة عن الماء . وأخيراً وصل إلى شجرة مباركة هي تلك البقعة السوداء . . التي عثر عليها في الصورة التي التقطت للمنطقة من السماء . وألقى بنفسه تحت الشجرة فاقد الوعي كالميت يتمم بعبارات الشكر لله الذي بعثه من جديد وأنقذه من الموت بين الجبال .

وكل من له دراية بفن الملاحة في الصحراء ، يعرف أن التائه فيها . . إذا وجد علامة واضحة على خريطة أو في صورة جوية ، واستطاع أن يصل في سفره إلى تلك « العلامة الأرضية » يمكنه أن يحدد اتجاهه ويصل إلى غايته بسلام .

* * *

فى وادى العطشان

وقبل شروق الشمس ، كانت السيارة تقف أمام خيمة « الميس » لكى أذهب بها إلى وادى العطشان على أن أعود فى المساء .
 اسمه بالكامل . . « وادى الطرفاوى العطشان » . ويوجد تَوْعْمٌ لهذا الوادى يطلقون عليه « وادى الطرفاوى الريان » . وظاهرة الأودية التوائم معروفة فى هذا الجزء من الصحراء الشرقية ، أى أنك تجد للوادى فرعين ، أحدهما يطلق عليه العطشان والآخر الريان . ويرجع أصل هذين الإسمين إلى أن السيول الناتجة من مياه الأمطار التى تسقط مرة كل بضع سنوات . . تتخذ مجراها فى فرع دون الآخر ، فتزدهر الأعشاب والنباتات الصحراوية فى هذا الفرع . . وتزوره قطعان من الغزلان وتتكاثر فيه الأرناب الجبلية والثعالب ، وتحط فيه أسراب الطيور المهاجرة للراحة والاستجمام ، ويهاجر إليه عائلات من العباددة ومعهم أغنامهم وإبلهم لترعى فيه .

وأما الوادى العطشان ، فلا تمشى فيه مياه السيول لارتفاع منسوبه عن شقيقه ، ويظل جافاً قاحلاً خالياً من السكان ، ومن الأثر البسيط للحياة الذى يتمتع به الوادى الریان .

الطريق من وادى عسل إلى وادى العطشان ، طريق مرتجل خطته عجلات سيارات البعثة الجيولوجية لأول مرة ، وعلى الرغم من أنه غير ممهد فإنه أيضاً غير وعر ، تمشى فيه السيارة « اللاندروفر » بسهولة مارة بين تلال منخفضة من الاردواز .

ولا يقطع رتوب لون الاردواز الرمادى إلا تلال برتقالية اللون ذات أصل بركانى تشبه الأقماع . هذه التلال فى حقيقتها براكين صغيرة قديمة متجمدة ، انبثقت خلال عصور جيولوجية لاحقة بين تلال الاردواز .

وتمر بك السيارة فى عدة منعطفات قبل أن تصل إلى المعسكر التابع للبعثة والذى يشتهر بين العاملين . . والرعاة من العبادة . . باسم « معسكر الرئيس عبد الشكور » .

* * *

تظهر خيام المعسكر فى فم الوادى من بعيد على هيئة بقع متقاربة بيضاء فى أرضية رمادية ، وتختبئ وراء التلال بعض البيوت الصغيرة . . يعيش فيها عائلات العبادة من العمال الذين يعملون فى معسكر الرئيس عبد الشكور ، شيدها أصحابها من كتل من الصخر اقتطعوها من الجبل المتناخم . وتوجد بقعة بيضاء بعيدة عن هذا التجمع السكانى . . هى خيمة الرئيس عبد الشكور ، فالرجل على الرغم من أميته يعرف فن القيادة . . وسيكولوجية السيطرة على الرجال ، ووجود خيمته بعيدة عنهم هو اختيار مقصود ، فشئونه الشخصية وأكله وشربه ونومه من الخصوصيات التى لا يجوز أن يطلع عليها رجاله ، ولا يجب أن يظهر عليهم إلا فى هيئة الحزم كل

صباح . . يطلق صفارته وهو منتصب القامة فوق تل صغير ، وكأنها صفارة الإنذار وقت الحروب ، فيهب الرجال جميعاً في لحظة واحدة ويقفون بين يديه ، فيقودهم بعد تحية مقتضبة إلى الجبل الذى يبعد مسيرة نصف ساعة من مكان الحيام .

يقولون : إنه كان قاطع طريق فى سالف الأيام ، وأعوانه من العمال . . رجال الليل السابقون ، يبجلونه ويقبلون يديه ، فهو كبير فى قومه ، عاقل ورصين . كل رجاله من أقاربه . . فهم إما أولاد إخوته أو أخواته ، أو أولاد أحد أبناء عمومته ، أو هم أزواج بناته . أو أزواج بنات إخوته أو أخواته . فهو بالنسبة لهم فى مقام الوالد والزعيم . الرئيس على كبر سنه متين البنيان ، قوى الشخصية ، هادئ الطبع ، يعرف آداب الكلام والإيجاز فيه . وللريس عبد الشكور دراية كاملة بفن القتال ، وله رشاقة النمر فى لعب العصا وتسلى الجبال .

ولا تقتصر شعبية الرئيس على رجال معسكره وعائلاتهم فحسب . . بل تمتد إلى الرعاة القريبين من المنطقة ، وإنّ له عليهم أفضالا يذكرونها له . فقد يسمح لهم بأن يبعثوا مع رجاله فى شراء الدقيق والسكر والزيت وربما القماش من القصير ومن قنا . وقد يسمح لواحد منهم أن يسافر بنفسه فى السيارة التى تذهب إلى وادى النيل كل شهر فيبيع جوال الفحم الموجود عنده ليشتري بشمته هدايا من الريف لأهله وعشيرته . وما رفض طلباً قطّ لراع يمر عليه ومعه نساؤه وأولاده . . سواء أكان هذا الطلب ماءً أو دواءً . وإن لدغ العقرب أو الثعبان أحد الرعاة أو ذويه أمر بتجهيز رجل من رجاله ممن يستطيعون إعطاء الحقنة إن كان المصاب من الرجال ، فإن كان من النساء فعليها أن تبتلع سائل الترياق الموجود فى الحقنة عسى أن يساعدها فى تخفيف الداء .

وأما نزهته اليومية فهى قبل صلاة المغرب ، يمشى منفرداً أو يرافقه بعض من

بطانته في وادي « أم جبر » أو وادي « أم راجية » القريين من وادي العطشان ،
 يتمتعون أنفسهم بأول نسيم سارٍ بعد هجير يوم حار ، فإن رأى أحد رجاله يحتطب
 أو يرعى أغنامه في وقت الفراغ . . زغده بعصاه المرسقة بالمسامير . . مداعبةً منه
 ودليلاً على الرضاء . وبعد صلاة المغرب يتناول عشاءه وحيداً ثم يصلي العشاء .
 وتبدأ سهرته أمام خيمته مفترشاً الأرض ومعه بطانته وبينهم « زردة » الشاي . .
 يتسامرون .

لا يقترب من هذه البطانة ولا يجرؤ على مجالستها أحد . . اللهم إلا إذا جاء
 شاكياً أحد زملائه . . أو طالباً إجازة ، أو راغباً في الذهاب إلى طبيب القصير
 مريضاً أو متأزماً ، وقد يحضر أحدهم لجرد التلّقى أو الإعراب عن الاحترام
 والولاء ، معبراً عن هذا بتعمير الجوزة أو تقديم الشاي .

ولم يكن اختيار أفراد البطانة مصادفة أو بناء على المزاج الشخصي للرئيس
 أو حسب مركز كلٍّ منهم الاجتماعي أو الوطني فقط ، بل إن هذا الاختيار يعبر عن
 نظرة سياسية حكيمة يحافظ بها عبد الشكور على « الوحدة الوطنية » للمعسكر ومن
 حوله من سكان تابعين ، ويبعد به عن مظهر التحيز أو التعصب ، فالطوائف
 جميعها سواء ، يمثل كلاً منها في البطانة شخصٌ أو اثنان .

ويشارك أفراد البطانة في صفة واحدة . . وهي أنهم جميعاً من كبار السن
 باستثناء شاب واحد من مركز « أبوطشت » بالصعيد . . اسمه عبد الشافي ، فهو
 يمثل رجل الدين في وادي العطشان . يؤذن للصلاة ويؤم الناس ويخطب الجمعة .
 وفي شهر رمضان المعظم يصطف الناس خلفه لصلاة التراويح في مكان فسيح . .
 بين الخيام ، وينبعث في المكان أنساً دينياً وبهجة روحية ليس لها مثيل . وتجد الشيخ
 عبد الشافي يردد الأدعية بأنغامها المباركة بعد الصلاة ، ومن ورائه جميع الرجال
 بلا أي استثناء ومعهم الرئيس عبد الشكور ورجاله قطاع الطرق السابقون . وترجع

الجبال صدى دعائهم وكأنها تردد خاشعة نفس الدعاء ، بل ربما تردد دعاءها بخشوع أكثر من بنى الإنسان ، فقد أبين أن يحملن الأمانة ، وأشفقن منها وحملها الإنسان ، يوم أن عرضها رب العرش ذو الجلال والإكرام . ويسرى هذا الصوت إلى أبعد من وادى العطشان . . فترجعه الجبال البعيدة أيضاً ، فتسمعه بعد لحظات من الصمت بعيداً . . خافتاً . . وأكثر شمولاً ، وكأن الصحراء . . تسلم وجهها إلى الله فى المساء . . تستغفره على جبروتها أثناء النهار .

والشيخ عبد الشافى يعرف القراءة والكتابة ، وهو بالتالى يمثل أيضاً فئة المثقفين فى منطقة وادى العطشان . عنده كتاب كامل قديم ، ورقه أصفر اللون بهيج . . كله أدعية وابتهالات ، وكتاب آخر به حكم وعظات . . وقصص خفيفة مليئة بالعبر والإشارات . . يجتمع الناس حوله بعد الانتهاء من السحور . . فى انتظار صلاة الفجر ، وعلى ضوء القانوس يلقيهم العلم ويرشدهم سواء السبيل ، ويحيب على أسئلتهم فى الدين والدنيا ، ويضرب لهم الأمثال ويحكى لهم من العبر ما يصبرهم على ما هم فيه من عذاب الحرمان والفراق ، ويبين لهم أن وجودهم فى هذا المكان ، وتحملهم سعي الجبال ، هو من أجل تقدم وطنهم وقوة المسلمين ، وأن الله سيعوض المتقين منهم بأن يدخلهم جنات رطية تجرى من تحتها الأنهار . . فيها من الفاكهة ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ، فتطمئن نفوسهم من القلق ومن الاكتئاب الذى يحتم عليهم من طول البقاء فى الصحراء .

والشيخ الطيب يجيد الحساب فيوزع على الناس أنصبتهم من الأكل الأسبوعى ويحسب لكل منهم ما يجب أن يتحمله من ثمن التموين وماله من باقى . كذلك يقوم عبد الشافى بلديح الدبيحة وسلخها وتقسيمها بميزان من صنعه ووحدات من الأحجار ، وقد تكون هذه الدبيحة مشتراة من الرعاة ، أو تكون غزالة اصطادها الرجال .

ومن اختصاصات الشيخ أيضاً « الإفتاء » . فهذا الصيد حلال وذاك حرام ، لأن الأول آكل عشب وأما الثاني فهو من الحيوانات آكلة اللحوم ، أو أن الأول مشقوق الظلف والآخر غير مشقوق . وهذا الطائر من الجوارح فهو حرام . والشيخ مؤمن بالعمل اليدوى ويرى أن المسلم الحق يجب أن يكون له مهارات عملية وإيجابية ، فقد كان نبي الله داود يأكل من عمل يده ، وهو يجيد أعمال البناء وقد أسهم في تشييد البيوت الصغيرة في هذا المكان ، ونحت بنفسه كهفاً في الجبل ليجعلها مخزناً للديناميت والكبسول ، وصمم له ترتيبات الأمان والتهوية حتى أصبح مخزناً قانونياً للمفرقات .

* * *

ويمثل « الصعايدة » في بطانة الرئيس عبد الشكور . . رجل مسالم هادئ الطبع نحيف الجسم أشيب الشعر . . اسمه « أبوقورة » . . وقد اختير الرجل لهذا الشرف لسببين : أولاً ، أنه ينتسب إلى نجع في الصعيد اشتهر بالعداء للنجع الذى ينتمى إليه الرئيس ، وبين النجعين ثار قديم ، ووجود أبوقورة في ندوة السهر كل ليلة يزيل عن بلدياته الشعور بالاضطهاد أو الإحساس بأنهم سكان من الدرجة الثانية تأتى في المرتبة بعد الفئة التى تنتسب بالانتماء إلى نجع الرئيس . وفى نفس الوقت فإن عبد الشكور يشعر أن وجود مثل هذا الرجل المسالم في بطانته وكونه يمشى خلفه . . يرمز للسيطرة على أهل النجع المعادى أجمعين .

وأما السبب الثانى في اختيار الرجل لشرف عضوية البطانة فهو ابنه . . شق خطير ، قاطع طريق يعملون له ألف حساب في الصعيد ، تاب عن منهجه والتحق بالبعثة وأصبح من عمالها الرسميين . وقد أنجب أبوقورة ابنه هذا وهو فى الثالثة من عمره ! . . هكذا يقول الطبيب الذى قدر عمر الإثنين على مرتين منفصلتين ولم

يفطن إلى أن هذا ابن ذاك .

* * *

وأما ممثل العبادة في بطانة الرئيس عبد الشكور فهو « جاب الله » ، نجده صامتاً على الدوام ، فالعبادة جميعاً كلامهم قليل ، ربما علمهم ذلك صمت الصحراء وربما تدربوا على هذه الخصلة كضرورة لعيشهم في تلك البقاع . . لأن الصمت يقلل من الظماً فيوفر بعض الماء . تجده جالساً في الندوة مستمعاً فقط . . يدخن غليونه الذي صنعه بنفسه من مادة « الطلق » التي جلبها من تل قريب ، ويضع فيه « دنخائاً » من النوع العادي الذي يستعمل في السجائر اللف بدلا من الدخان المخصص للغليون .

جاب الله لا يعرف سنّه . وهو على كل حال قد جاوز السبعين ، وسوف يظل في وظيفته بالحكومة حتى التسعين بفضل تقدير الطبيب . . الرجل الطيب الذي لم يشأ أن يقطع عيشه عندما أرسله رئيس البعثة إليه ليقدّر عمره . وعلى الرغم من شيخوخته فهو صحيح الجسم . . خفيف الحركة . . نحيف مثل كل العبادة ساقاه كالعصا رفعاً وجفافاً . صحيح أن جاب الله من العبادة لكنه آثر العيش في رفاة نسبية بعد أن تقدمت به السن ، فبنى لنفسه بيتاً من الحجر في الصحراء بالقرب من مشارف قنا ، يذهب إليه كلما أخذ إجازة . وقد تزوج عروساً صغيرة في الخامسة عشر من عمرها حتى تعيد إليه شبابه ! ، ولكي تؤنسه وتخدمه عندما يخرج إلى المعاش لأنه بلا ولد ، وهو سعيد بها كل السعادة ، وهي أيضاً سعيدة به وفخور بمهنته .

ومهنة الرجل في الحقيقة مهنة بسيطة ولكنها مهمة . . هو « ولاع ديناميت » واجبه أثناء النهار يأتي بعد أن ينتهى دور الرجال من عمل خروم في الصخر عميقة الأغوار في الموضع الذي يوجد فيه خام اليورانيوم ، فيحشوها جاب الله بالديناميت

ويضع الكبسول . . ويصبح بأعلى صوته : « بارووود » . . حتى يأخذ الحذر كل من كان قريباً من مكان الخندق ، ثم يشعل الفتيل ويولى هارباً ليختبئ من الانفجار في أول كهف قريب .

* * *

ومن بين أعضاء بطانة الرئيس عبد الشكور . . ممثلاً للبحاروة ، السائق صبحي . . من أبناء دمنهور ، « نصف عاقل أو نصف مجنون » . . يعيش سيارته « اللوري » ويتغزل فيها ويعاملها بحب واحترام كأنها زوجته . لا يقبل أن يركبها سائق آخر عندما يكون في إجازة فإذا لم يوافق رئيس البعثة على تعطيل السيارة انتظاراً لعودته ، ضحى الرجل بإجازته خشية أن يستعملها أحد في غيابه . ويعتبر صبحي أن مجرد الإشارة إلى مثل هذا الاقتراح إهانة لشرفه .

وقد تخلقت شخصيته من كثرة عيشه في الصحراء بنوع من الحرية لا يوجد في مفهوم الحكومة تفصل في بعض الأحيان إلى درجة التمرد والفوضى ، فهو يستيقظ متى شاء وينام متى شاء ، ويسافر إلى قنا متى شاء ليجلب الطعام والماء لرجال المعسكر . هذه مسئوليته لا يجب أن يشاركه فيها أحد . بل إنه يستطيع بسيارته أن يعزّ منهم من يشاء بأن يأخذه لزيارة أهله في الصعيد ، وأن يذل منهم من يشاء بأن يتركه هكذا بين الجبال حتى لو حان موعد إجازته .

يهاب الرئيس عبد الشكور لسطوته ورجاله . . ولكنه يؤكد دائماً للناس أن صداقته مع الرئيس هي سر قبوله لأوامره ، لأنه حرٌّ في سيارته ، وهو يطيع رئيس البعثة نفسه لا لشيء سوى أنه رجل طيب ، ولولا هذا لما نفذ له أى أمر . والرئيس عبد الشكور يعرف غيرته على سيارته ، فهو لا يرهقه بالأوامر والطلبات بل يحافظ على مشاعره تماماً فيما يختص بسيرتها ، ويكلمه عنها بشحفظ وكأنها حرمه ، لأن شخصية عبد الشكور هي شخصية الدكتاتور الداهية ، الذي يسوس الأمور

بهدهو وحكمة ، وهو من الكياسة بأن يظل مرهوب الجانب لا يعصى أحد له أمراً .
فإن توقع أن أحد مراكز القوى مثل السائق صبحي سيرفض ركوب أحد الرجال
معه ، لرفضه هو قبل أن يرفضه صبحي ، لأن صبحي لو عصى أمره بطريقة
واضحة فإنه من المستحيل أن يتركه في المعسكر ولو أدى ذلك إلى أوتعم
العواقب . والرئيس يعرف أنه على الرغم من أن صبحي على بينة بقدرته على البطش
به فإنه لا يستبعد أن يعصيه في لحظة جنون ، لو ظن أن أحداً تدخل في الشئون
الشخصية لسيارته . . وأهان شرفه ، وقد استبد به الجنون ذات يوم وعصى أمر
رئيس البعثة ذاته ، وهدد بأن كل من يقترب من سيارته المحبوبة سوف يهشمه بها .
وقد دفع الثمن بعد ذلك غالباً ، بأن نفي إلى وادي أبو جرادى شبه وحيد لمدة عام ،
وفرقوا بينه وبين سيارته ، بل أمروا سائقاً غيره أن يركبها أمام بصره إمعاناً منهم في
امتهان كرامته .

وإن أراد أحد أن يتملق (صبحي) ، فعليه أن يداعب القط « مشمش » فإن
كانت السيارة بديلاً لزوجته فالقط يعوضه عن ابنه ، يحضر له الهدايا من قناكل شهر
ويسلق له البيض في الفطور ، ويطبخ له اللحم ، في الغداء والعشاء . وعندما يأتي
أحد الجيولوجيين لزيارة وادي العطشان فلا بد أن يستحيم القط ، ويمشط له شعره
ويعمل له الفرق ويذهب به ليقابل الجيولوجي الضيف أو رئيس البعثة نفسه . وقد
يُصادف أن يكون مزاج رئيس البعثة معتدلاً فيداعب القط ، فتكون سعادة
صبحي لا نهاية لها ، فهي علامة على رضا الرئيس عن صبحي وعن القط ،
ويقابل هذا بدعاء من الأعماق للرئيس البعثة الرجل الطيب ، وأن يبنى الله له
أولاده .

* * *

مجتمع العباددة

على الرغم من قلة عدد العباددة فإنهم منتشرون أساساً فيما يعرف « بالصحراء الشرقية الوسطى » وهى تلك المساحة من الصحراء المصرية المحصورة بين خطى العرض ٢٤ ، ٢٧ شمالاً ، والواقعة بين وادى النيل غرباً والبحر الأحمر شرقاً . والعباددة يعيشون أساساً على الرعى ، يحويون أودية تلك المنطقة بحثاً عن العشب الناتج من مياه الأمطار النادرة . ولهم مورد آخر للماء عبارة عن آبار ارتوازية قليلة مثل بئر العطشان وبئر الحربية وبئر الحمامات ، وبين كل منها والأخرى مسافة طويلة .

ويتميز جسم الرجل العبادى والمرأة العبادية بالنعافة . ويرجع هذا إلى سببين : أولهما ، أن بيئتهم تفرض عليهم نشاطاً جسدياً طول اليوم للرعى والبحث عن الجبال الضالة والأغنام الشاردة والاحتطاب . وأما السبب الثانى ، فهو ندرة شرب الماء ،



وعائلات العبادة .. على الرغم من قسوة الطبيعة عليهم ..
سعداء بالحرية والانطلاق

وقلة الطعام . . فهم يعرفون أن الزائد مه يؤدي إلى احتياج أكثر للماء . وقد لاحظت أن نسبة المعمرين منهم كبيرة ، وأن تعاقب السنوات لا تظهر بصماته بسهولة على ملامحهم ، فهم دائماً في شباب وحيوية ، حتى من جاوز منهم مائة سنة . . عنده سرعة فائقة في المشي ، وخفة يحسده عليها الظبي في تساق الجبال . وكثيراً ما كنت ألاحظ أيام معيشتي في تلك البقاع جدّة نظر العبادي حيناً يمشي معي في الصحراء ، فقد يحدث أن يرى غزالة جالسة تحت شجرة بعيدة لا يستطيع تمييزها أي واحد منا نحن سكان المدن أو سكان الريف . . لا الغزالة ولا الشجرة نفسها ، وبمنظار الحقل المعظم كنت أتُحقق من صدق رؤيته ، بل يظل يشرح تفاصيل حركتها وكأنه هو الذي ينظر خلال المنظار . وقد يكون للصحراء نفسها فضل كبير في جدّة النظر التي يتمتع بها العبادة لأنه لا يوجد ما يعوق العين عن امتداد الرؤية .

والبريد في بلاد العبادة وسيلته الرعاة ، فكل راع مشول عن توصيل الرسائل من أسرة إلى أسرة . وهذا واحد منهم يمر ببيعه على خباء . . يعرف سلفاً أن به عيال فلان ، فهم يسكنون بجوار هذه البئر في تلك الأيام . والعيال هنا عبارة عن الزوجة منفردة أو الزوجات . . أو الزوجات والأولاد ، فيحط بجوار الخباء . وتستقبله النسوة مرحبات ، لا يمهله حتى يرتاح أو ينبغ الجميل . . أو يزيج عن ظهره « السراقين » أو يقدم له الماء ، فهن على أخبار الحبيب الغائب مثلَهفات ، يسألن عن مكانه وعن ميعاد عودته ، فيطمئنن أنه بخير ، فقد قابل فلاناً فأخبره أنه التقى بفلان الذي عرف منه أنه قابل رب الأسرة وأنه سيعود إلى بيته هنا بعد سبع ليال ، وأنه يبعث إليهن بالسلام . وبعد الراحة وتناول العشاء . . يجلسن حوله في نور القمر أو النجوم وبينهم « راكية » الشاي . . يحكي هن الطرائف وأخبار العبادة في كل مكان .

فهذه فلانه بنت فلان قد جاوزت الاثنى عشر عاما ، لذلك فقد خطبت إلى ابن خالها ، أمهرها بغيراً . . حملها بالدقيق والقماش والسكر والشاى ، وكذلك ثلاث نعاج ، وسوف يتم الزفاف فى وادى « أراك » بعد ثلاثة أشهر ، وأن زوجكن الغائب سيسافر فى الميعاد لحضور الاحتفال الذى سيستمر بضع ليال ، وسترافقه من بينكن زوجتان ، وأما الباقيتان فسوف تمكثان هنا لرعاية شئون الأطفال وشئون الأغنام ، وكنعويض لهما فإنه سيأخذهما معه فى الموسم . . لزيارة ضريح سيدى أبى الحسن الشاذلى . . إذ إنه يعتزم الذهاب إلى هناك هذا العام . . لتبادل الفحم بالأغنام .

وأخذت النسوة يمزحن مع بعضهن ، وكل واحدة تؤكد أنها سيقع عليها الاختيار لحضور الزفاف فى وادى أراك .

وقالت إحداهن

— والله يا عمى الشيخ إذا وقع اختياره على . . لأحضرن لك معى هدية من هناك .

— وماذا يوجد يا بنيتى فى وادى أراك . . سوى أعواد الأراك؟ (السواك) .
لعلك تحضرين لى معك كمية منه . . فأدعوك بالخير .
ويقول لهن :

— ألم تعرفن بالخبر السعيد؟ لقد رزقت حفيدتى بمولودة ، أطلقنا عليها اسم « فاطمة » . . لتحل البركة للعائلة كلها . . حينما يكون فيها سمية بنت رسول الله .
ثم يلجى طلبهن بأن يتذكر ما عنده أيضاً من أخبار فيقول :

— هل تتذكرن جميل فلان الذى ضلّ طريقه منذ عام ، ودخل الجبال الصخرية التى يتعذر فيها تعقب الآثار؟ . لقد عثر عليه فلان فى خور ضيق عند مدخل وادى « أم جروف » . . هيكلا عظيماً . . تبقى من الثعالب والحشرات . .



وړغی ښځی په پات ښځی
په پات ښځی

والطيور الجوارح .

وأما عن أخبار الوفيات . . فقد توفي الشيخ فلان رحمه الله ، ووهبنا مثل عمره . . آمين ، فقد عاصر في طفولته غزوات قبائل المعازة . . وعمل في مناجم الذهب في الفواخير التي كان يديرها الخواجات ، وله من الحفدة ما عمر به الاودية من « مقتل محمد » شرقاً إلى ما يقرب أرض الريف الخضراء من جهة الغرب .

وتترجم عليه النسوة ، ويعد البكاء تسأله إحداهن :

- ترى في أى مكان وافته المنيّة ؟

- فيقول الرجل :

- سبهان من له الدوام . . لا تدري نفس بأى أرض تموت . . لقد جعلوا قبره عند جبل « أم صافي » تحت الشجرة البحرية حيث أقام في آخر أيام حياته ، وأن القبر وضعوا عليه رايات زاهية اللون من قماش عثروا عليه بين أشياء المرحوم . فقد اشتراها لنفسه مع الكفن حينما كان في مدينة « الأقصر » منذ عامين واستبقاها معه إلى أن حان أجله .

وتسأله النسوة :

- ترى من قام بدفنه ؟ ويقول الرجل :

- مرّ به عبد الرحمن بن جبريل فوجده في الترع الأخير ، فلم يشأ أن يستمر في سفره والشيخ على تلك الحال ، فبقى بجواره يخدّمه لمدة ثلاث ليال . . ينتظر خروج السر الإلهي ليصلى عليه ويدفنه بنفسه ويدعو له بالرحمة ويبلغ الأقربين بمكان قبره . . ويبلغ العبادة كلهم متى سمحت بهذا ظروف الرحلات .

* * *

وعائلات العبادة - على الرغم من قسوة الطبيعة عليهم - سعداء بالحريّة

والانطلاق والسفر بين الأودية بحثاً عن العشب والرزق والماء ، بل إنهم يشفقون علينا من صعوبة معيشتنا في المدن حينما يسمعون عن وجود مساكننا بعضها فوق بعض بالعرشات ، وأكثر ما يستعصى على خيالهم تصوره هوكيفية توزيع الماء على كل هذه الحشود الهائلة من البشر في المدينة .

ويحمدون ربهم على أن بلادهم واسعة فيها متسع لكل ساكن وأنه سبحانه وهب لكل زوجين منهم بيتاً مستقلاً يستطيع أن ينقله فوق بعيره حينما شاء . والرجل العبادى يشارك نساء أعمالهن فهو يحسن مثلهن تشييد موقد يشبه « الكانون » ونخب الرقاق ، وطهى اللحوم إن حل ضيف أو مرضت عنز أو أصيبت نعجة . وهى أيضاً تحمل محله إن كان مسافراً . . ترعى الإبل والأغنام ، وتجيد الاحتطاب متسلقة الأشجار برشاقة لاعبات الباليه ، وتعرف أسماء الأودية والجبال ، وتهتدى في طريقها بالجبال الشاخنة وبمواقع النجوم ، وتصنع الثياب لزوجها وتغزل صوف النعاج والجمال . . وتحمل ملابسها بجملد الثعلب أو الأرنب أو الغزال ، وترتق القديم من الملابس أو « تقيفها » ملابس للأولاد .

وهى مخلص لزوجها . . تتزوج عادة وهى في الثانية عشرة من عمرها ، وقد يكون زوجها صبياً في مثل سنها ، أو شيعاً في عمر أجدادها ، وفي الحالين تجد ولاءها له وإعجابها به يفوق الخيال . وهو إن مات لا تفكر في الزواج من غيره قبل مرور أعوام طويلة . . وباضطرار تفرضه عليها البيئة الصحراوية وضغط اجتماعي شديد وتظل حافظة لعهد وذكراه مع الزوج الجديد . . الذى يشجعها على هذا ويشاركها احترام الراحل الكريم ، ويذهب بها لزيارة قبره في الوادى الذى وافته المنية فيه مها طال السفر .

ومعيشة الزوجات واحدة . . يتعاون في الشئون اليومية ويتنقلن في جماعة واحدة . وعندما يعود رب الأسرة من سفره يحل العيد بينهن . . فتلبس كل منهن

أحسن ما عندها من ثياب ، وتتحلى بما قد يكون لديها من أقراط أو خواتم أو أساور من ذهب أو من الأحجار الكريمة كالفيروز والياقوت والزمرد . . التي جلبها الزوج من وادى الجبال وغيره . . وشكلها بنفسه لتصبح زينة للنساء .
وهى شديدة التحفظ . . ليس فى الجوهر فقط وإنما أيضاً فى المظهر . . الذى تعتبره لا يتجزأ أبداً عن الجوهر ، فإن مرَّ بها أحد الغرباء أو سمعت صوت سيارة أدارت ظهرها وجلست القرفصاء ووضعت رأسها بين ساقها ورمت غطاءً على جسمها كله فظهرت وكأنها كومة صغيرة سوداء . ولا تظن أن نساء العباددة لهذا مترمّات أو رجعيات . . هذا فقط مع الغرباء ، فحياة العباددة الاجتماعية لا تقل فى تحررها عن أكثر المجتمعات حضارة ، فكما قلنا . . هى تقابل الرجال من العباددة وتناقشهم فى كل شأن من شئون الحياة . وتلتقى الفتاة أو المرأة المخطوبة بخطيبها أمام الأهل أو على انفراد ، لا يوجد أى قيد عليهما . . يرعيان الغم معاً طول النهار ، ويحريان ويلعبان ويتسامران . . فى أى فج أو مسلك من مسالك الصحراء ، وقد يسافران معاً من بئر إلى أخرى .

والثقة بين العباددة كبيرة . لا يوجد عندهم شيء اسمه الخيانة إلا فى النادر من الأجيال ، ويستبعد الخائن من مجتمع العباددة ، لأن طبيعة البيئة تحتم عليهم التعامل بثقة كاملة ، فكل أسرة كما يينا تعيش فى عزلة ، وغياب رب الدار معتاد ، وبقاء النساء وحدهن فى منطقة شاسعة جبلية وحاجتهن إلى سؤال الرعاة فى أثناء غياب الزوج أو الأب يحتم التعامل بينهم بالأمانة والشرف ، فمن يخرج على هذه الأخلاق ينبذه المجتمع العبادى ، ويمسى شريداً حتى يموت وحيداً تحت سفح أى جبل من الجبال .

* * *

وللعباددة نوادرهم التى تحكى فى مجالس السمر الخاصة بهم ، وتعبّر عن البيئة

الحبيطة ، وعن اختلاط بعضهم بالغرباء الذين يحيثون إلى بلادهم للبحث والتفتيش ، فتجد الظرفاء منهم يقلدون كلام القاهريين وطجة أهل الصعيد ، ويتندرون على بعض تعبيراتهم وكلماتهم ، ويسخرون من تسميتهم بعض الألوان بغير مسمياتها ، فاللون الذى يسميه العبادة لبني . . يقول عنه القاهريون أزرق ! فأما اللون الأزرق يقولون عنه أسود !

ويقصون على النساء حكايات عن طمع بعض الغرباء ، فهذا رجل منهم جاء إلى حمدان العبادى وأخذ يشكو له قلة المال وكثرة العيال ، ويرجو حمدان أن يعينه على هذا البلاء ، فيتعجب حمدان كيف يتسنى له ذلك وهو رجل فقير ؟ ويتضح أن أحد أشقياء العبادة أوهم الرجل الغريب أن حمدان يعرف أماكن الذهب فى الجبال التى تخلفت فى الموقع الذى كان يستغله الخواجات منذ زمن بعيد ، وأنه لا يرضى أن يأخذه لنفسه أو ييوح بسره لأحد .

ويتندرون على تلك المرأة التى عاد زوجها من سفر طويل ذهب فيه إلى الصعيد ، ودخلت خبائه فوجدت على الأرض ما يشبه الرأس المشقوق المخضب بالدماء . . فصرخت وفزع إليها الزوج ، وضحك من جهلها وأفهمها أنها « بطيخة » تؤكل فتروى الظمأ ولها طعم لذيذ .

وهذا الشخص الذى عين كدليل فى إحدى البعثات التى تأتى إلى بلادهم وبها غرباء ، وعاد يحكى للأهل والأصدقاء كيف أنه وجد عندهم صندوقاً يتكلم أحياناً بصوت الرجال وأحياناً يغنى كالنساء ! .

وقصة هؤلاء الرجال الذين ولدوا فى الجبال ، وعاشوا فيها حتى بلغوا سن الشباب ، ولم يتصلوا بأهل الريف قط ، فهم لا يفقهون أى شىء خارج المجتمع الصحراوى العبادى ، صدر أمر من شيخ العبادة بأن يمثلوا بين يديه فى القصير

ليقدمهم إلى الحكومة فهم خارجون على القانون ، لأنهم لم يؤدوا الخدمة العسكرية . فقبضت عليهم الشرطة وقدموا إلى محكمة الغردقة ، ووجه إليهم القاضي سؤاله :

— ألا تعرفون أيها الناس أننا في حالة حرب مع إسرائيل ؟
فلم يفقهوا مقصده . . واكتشف أنهم لم يسمعو قط عن إسرائيل هذه .
فسألهم القاضي : في أى مكان نحن الآن ؟
قالوا : في بيت القاضي .

فتعجب القاضي وأشار إلى صورة الرئيس جمال عبد الناصر المعلقة خلفه قائلاً :
— ومن هذا ؟

فارتبكوا ثم أجابوه :
— أليس هذا هو والد القاضي ؟

واستطاع المحامي الأريب أن يكسب عطف المحكمة عليهم حينما قال :
— ليس هذا مجرد مثال يا حضرة القاضي للجهل بالقانون ، ولكنه دليل على أن الدولة قد جنت على هؤلاء المواطنين ، فهي لم تقدم لهم أى نوع من الرعاية الاجتماعية ولم تتذكرهم يوماً واحداً طول حياتهم . .
والمحامي على حق ، فهؤلاء الناس مواطنون مصريون من الناحية النظرية فقط ، والشئ الوحيد الذى يربطهم بمصر هو أنهم يعيشون ضمن حدودها السياسية .

وقد نشر « الأهرام » في ذلك الوقت كلمة لى . . كتبها لتعبر عن حاجة هؤلاء المواطنين الجاهولين . . للرعاية الاجتماعية هم وأمثالهم ممن يعيشون في صحارى مصر . . ولاندرى عنهم شيئاً .
تقول الكلمة :

المسح الاجتماعى للمناطق النائية

« كانت حدود بلادنا من قبل حدوداً سياسية فقط ، لأن العزلة التى عاش فيها سكان المناطق النائية قد فصلتهم تماماً عن سكان المدن الكبرى والريف . وسكان الصحارى ما زالت لهم تقاليد قديمة لا يستطيعون بسببها أن يصلوا إلى المستوى الذى وصل إليه إخوانهم فى المدينة والقرية . ومن واجب معاهد البحث الاجتماعى أن تبسط اهتمامها على الصحارى المصرية فتدرس تقاليد هؤلاء المواطنين ، وتعلمهم وتأخذ بيدهم نحو تطور ورقى سريع . ومن واجب الباحثين الاجتماعيين بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية ومعهد الخدمة الاجتماعية والجامعات أن ينتشروا بين البدو فى الصحراء الغربية ، وبين العبادية وسط الصحراء الشرقية وقبائل « البشاريين » جنوبها ، وألا يجعلوا كل مجهودهم للمدينة والريف .

وقد يسأل سائل : وما هى الطريقة التى ينتقل بها الباحث الاجتماعى عبر جبال الصحراء الشرقية بضع مئات من الأميال ؟ وكيف يعبر بحر الرمال الأعظم بالصحراء الغربية للوصول إلى هدفه ؟

وأين الإمكانات التى تكفل له السلامة ؟

وأجيب بأن البعثات الجيولوجية تغطى الصحارى المصرية كلها ، وهى قادرة على استضافة الباحثين الاجتماعيين ومعاونتهم فى أداء واجبه الإنسانى نحو بنى وطنهم الذين حرمتهم الظروف الجغرافية من التمتع بحياة قروناً طويلة .»

* * *

وبسبب قسوة البيئة الصحراوية ، تجد أن بعض الأسر العبادية نزحت إلى قرى

الصعيد غرباً أو إلى مدن البحر الأحمر المتاخمة شرقاً مثل سفاجة والقصير أو إلى بلاد صغيرة نشأت على أكتاف الاكتشافات والمناجم ، مثل « حاضات » و « الحمراءوين » ، وهى قرى صغيرة ظهرت فى الصحراء الشرفية قريبة من مناجم الفوسفات ، بدأت بمساكن للجيولوجيين والمهندسين والعمال الذين جاءوا لإدارتها وعائلاتهم ، ثم ازدادت مقوماتها بأن فتح أحدهم فيها دكاناً غير مرخص ، واستقر غيره فى الجامع كواعظ وإمام ، ثم ظهر فيها ما يشبه المدرسة والوحدة العلاجية وهكذا يستمر نمو المرافق حتى تصبح القرية كاملة أو على وشك الاكتمال .

ويشجع العبادى على الزواج ومعه عائلته إلى تلك القرى المنجمية أو البلاد الواقعة على ساحل البحر الأحمر أو مشارف الصعيد . . اكتسابه مهارة تعينه على المعيشة فى البيئة الجديدة ، إذا تعلم مهنة عصرية فى أثناء عمله فى إحدى البعثات الجيولوجية أو المناجم ، مثل مهنة مساعد ميكانيكى أو مساعد سائق أو ولّاع ديناميت أو « عطشجى » لأحد قطارات المناجم . وتجد هؤلاء العبادة النازحين يكونون لهم تجمعات صغيرة على مشارف تلك البلاد ، فالقصير يوجد عند حدها الجنوى تجمع للعبادة وكأنه حى خاص بهم أوضاحية صغيرة ، وكذلك قنا . . وحاضات بلد الفوسفات التى لم تزل فى دور التكوين .

وينظر سكان الجبال من العبادة الرحل . . إلى هؤلاء الذين استقروا بالقرب من مشارف البلاد على أنهم مرفهين وتأنف الفتاة العبادية التى تعيش الحياة الصحراوية بقسوتها الكاملة أن تقترن بشاب من بين أولئك المترفين .

* * *

صالون فى الصحراء

لا أظن أن هناك ندوة تجمع بين أفرادها من أنواع التناقض مثل ندوة الصحراء . تلك الندوة التى تعقد كل مساء بدون ترتيب سابق فى إحدى الخيام شتاء ، وأما فى الصيف فإنها تعقد على الأرض . . فى الهواء الطلق بأى جزء من أجزاء المعسكر يكون ملتحق لتيارات لطيفة من الهواء .

ويرجع اهتمامى بما يدور من حديث فى هذا الصالون - إن جازت التسمية - إلى أن الموجودين فيه يمثلون عينات عشوائية من مجتمعات شتى ، ويرسم حديثهم صورة فريدة لالتقاء هذه المجتمعات . . لقاء لا يمكن حدوثه إلا فى تلك المنطقة من الصحراء . فى الندوة تلتقى تقاليد أهل الوجه البحرى بأهل الصعيد . . لتتفاعل مع عادات أهل تلك البلاد . . بلاد العباددة . وتختلف درجات العلم والثقافة عند الموجودين ، فمنهم من لا يعرف القراءة ، ومنهم من يعرف القراءة دون الكتابة ،

ومنهم من حصل على الماجستير أو الدكتوراه في العلوم الذرية . وقد يدور حوار شائق بين رجل لم يرح بلاد العبادلة قط ، ورجل جاب قارات العالم وقضى معظم حياته في أكبر عواصمه .

وتجد سيرة المرأة تشغل الجانب الأكبر في حديث الصالون . ومعظم ما يقال عنها . . يحكى من الأساطير كمنادج بحرمة لغدر النساء . . ومنادج مقابلة لإخلاصهن . وتضرب الأمثال على الحبث الذى يتسم به بعضهن . . والالتواء والمكر في تصرفاتهن مع الرجال . وأن من تخون زوجها وهو غائب يبحث عن رزقه . . يعلبها الله عذاباً شديداً حتى ولو كانت الخيانة عبارة عن كلمة أو إشارة أو نظرة أو ابتسامة أو في الخيال . . أو حتى في المنام . ويقول أحدهم :

— إن الإخلاص يا رجال . . موجود أيضاً بين النساء . . ويبرهن على ذلك بأمثلة حقيقية عن امرأة كان يعرفها ، أحب زوجها الذى مات في شبابه فظلت حافظة لعدهه . . وفيه له في مماته كما كانت في حياته . . وحرمت نفسها نعيم الدنيا . . وزهدت الحياة نفسها فزهدت الحياة . . ولحقت به راضية .

ويؤيد أحد المثقفين هذا الاتجاه في الكلام ، فيطمئن الموجودين على أن الدنيا بخير ، وأنه يعتقد في وجود بنت الأصول ، وأن على الرجل أن يبحث عنها إلى أن يجدها ، ويروى في بساطة قصة «أوديس» الذى تاه في عرض البحر ، وانتظرته زوجته «بينيلوب» . ورفضت الزواج من غيره ، واستطاعت وهى الفتاة الصغيرة أن تقاوم إمكانات دولة بأكملها أرادت أن تجبرها على الزواج من غيره ، إلى أن عاد بعد عشرين عاماً ليجدها مازالت في انتظاره . . صامدة بقوة الحب ضد مؤامرات رجال الدولة وضغوطهم . واعتبرها الأقدمون نموذجاً للإخلاص فأطلق الانجليز

اسمها على كل امرأة مخلصه وأصبحت كلمة Penelope في الإنجليزية تعنى المرأة الطاهرة .

ويعرج الحديث على المرأة في القاهرة . .

ويتعجب البعض مما يسمعون عن الحرية الموجودة لديها . وأنها تشغل مناصب في الحكومة ، ولها مرسومين من الرجال ! ، توجه أعمالهم وتعاقبهم حينما يخطئون ، لذلك فلا سلطان لزوجها عليها إلا في حدود . وقد يصل تعليم الفتاة هناك إلى أعلى الدرجات ، ومنهن من فاقت رتبها في الحكومة رتبة زوجها ، ومنهن من لها في الدولة كلمة مثل كلمة رئيس البعثة ذاته . ويصفون الأزياء الحريمى الجريئة التى تلبسها النساء في القاهرة ومنها « المينى جيب » ويضرب الرجال كفاً بكف متعجبين . ويقول رجل منهم عاد منذ يوم واحد من مأمورية له بالإسكندرية :
- وماذا يكون قولكم لورأيت النساء على ساحل البحر المالح ؟ إنهن عاريات تماماً إلا من لباس يقال عنه المايوه ، يجلسن هكذا بجوار رجال عراة مثلهن يتسامرون . . لا يشعر أحد منهم بالخلجل . ولقد رأيت بنفسى رجلا وامرأة يسبحان مع بعضهما ، وقد أمسك الرجل بيدها وغطسا معاً ، ثم وقفت المرأة بعد هذا على كنفه وفقرت بدماغها إلى الماء وهى تضحك ضحكة تنفتت من سحرها هذه الصخور .

ويستنكر البعض أن يقبل رجل ظهور امرأته عارية أمام الناس . .
ويقسم آخر أنه رأى بنفسه امرأة . . عارية إلا من هذا المايوه . . خرجت من الماء كعروس البحر وفتحت سيارة ملاكى زرقاء ودخل زوجها إلى جوارها ، وأظنكم لن تصدقوا من كان يقود السيارة ، إنها المرأة والله العظيم . ويستغفر الناس ربهم قائلين إن هذا من علامات الساعة . . فقد وصلنا إلى الزمن الذى تنقلب فيه القيم وتقود المرأة زوجها . إن الرجل أيها الناس لا بد أن يكون هو القائد ، سواء فى

دروب الحياة أم في شوارع المدينة .

* * *

وبذكر «علامات الساعة» يتحول الحديث إلى الدين . وحتى في هذا الحديث يواصلون كلامهم عن المرأة من خلال الدين . فالآيات التي تعالج الشئون الشخصية للنساء . . تشغل جزءاً كبيراً من كلامهم ، كذلك الآيات التي تنظم العلاقات معهن مثل أحكام الزواج والطلاق . وسورة النور يحفظها الكثيرون فهي تعالج مشكلة الزانية والزاني ، وتبدهم يتركون التعليق على خطيئة الزاني ، ويناقشون عقاب الزانية . وإذا زنت امرأة متزوجة وجب إقامة الحد عليها . . « حد الرجم » ، وإن الآية التي نصت على ذلك قد نُسخَت قراءةً فقط ، لحكمة يعلمها الله ورسوله والراسخون في العلم .

وكما ذكرت خطيئة المرأة تجدد السخط والتوتر يخيّان على الحديث بشكل ملحوظ ، وربما يصل التأثير ببعضهم إلى درجة يتهدج فيها صوته من أثر الانفعال ، وكان الحوار يدور حول امرأة بذاتها . ولو وجدوا حين ذلك أشد من الرجم عقاباً لأنزلوه بها . ويطلقون لخيالهم العنان . . ويحكون أنواعاً غريبة من العذاب سوف تلحق بها حتماً في الدنيا والآخرة وإن الله لو غفر للناس ذنوبهم وخطاياهم ما غفر لامرأة تخطئ . . وزوجها غائب يبحث عن رزقه ، ويتعذب في سعي الجبال . وينتهي الحديث الديني بهم إلى قصص مختلفة من القرآن الكريم ، ومن القصص التي تمثل الصدارة في تلك الندوة قصة موسى والخضر عليها السلام . ويجهلون في استنباط الحكمة والموعظة وعبر الحياة . وأولها أن الإنسان لا يعرف من أمر نفسه شيئاً ، فرما نجلس هكذا آمنين . . وتأتي سيارة من العمران تحمل إلى أي رجل منا برقية تنبهه بموت أقرب الأقرين . وكل له برقية آتية في يوم لا ريب فيه .

* * *

ويتطرق الحديث إلى الهويات . .
وأكبر هواية عندهم . . « الغيبة والقيمة » . .
نجدهم يغوصون في الشئون الشخصية لزملائهم من الذين لم يحضروا الندوة
بدرجة معينة .

وقد لاحظ بعض الأدباء والمفكرين هذه الخصلة في المجتمعات الصغيرة
المنعزلة ، ومن بينهم . . الأديب الإنجليزي « سومرست موم » ، ووصفها في كثير
من أعماله .

وتفسرى لهذا أن أخبار المجتمع الصغير الذى يعيشون فيه . . تحمل محل أخبار
المجتمع الكبير الذى يعيش فيه الشخص العادى ، وبمعنى آخر فإن أخبار الزملاء
تعوض عن أخبار السياسة وأخبار الفن والأدب في المجتمع الكبير . فالزملاء
القليلون يشكون « عملياً » المجتمع الذى يعيشون فيه بأكمله .

والواقع أن عادة الكلام عن « الغير » . . موجودة في أخلاق الإنسان ، سواء
الطيب أو اللئيم ، لكنها مسألة نسبية . أليس بعض الكلام عن أخبار نجوم المجتمع
الكبير . . غيبة ونميمة ولكنها توصف عادة بأنها ثقافة . . ومعرفة ببواطن
الأمر ؟ ١ . لماذا نظلم إذن هؤلاء المنتدين في صالون الصحراء ؟ ٢ . إن هذا
الصالون يمثل ندوة في مجتمع صغير ، وأخبار أفرادها ثقافة ومعرفة بالنسبة لمجتمعهم
المحدود والدليل على هذا أنهم حيناً تصلهم الصحف بعد طول انقطاع ، تجددهم
ينصرفون عن الكلام في شئون زملائهم . . إلى الحديث عن شئون المجتمع الكبير
وسيرة نجومه البارزين .

وهم إذا تكلموا عن نجوم المجتمع الكبير تجددهم متطرفين في أحكامهم إما
متحيزين لأحد منهم بالشكر وإما مهاجمين له بقسوة . وعادة ما يكون وراء
حكمهم المتطرف شعور بأن هذا المسئول يقدر كفاح العاملين في المناطق النائية أو أنه

يجهل أحوالهم .

وصاحب « نحو النور » له منزله كبيرة في نفوس سكان تلك المنطقة من الصحراء المصرية ، فقد وصفهم ذات يوم بأنهم « القلب النابض للوطن » . . حدث هذا حينما طالب المسئولين في عموده اليومي الأغر بتقوية محطات الإرسال التلفزيوني في محافظات الوجه القبلي وقال : إن سكان الصعيد في حاجة أكثر من غيرهم إلى برامج التلفزيون . فكتبت إليه خطاباً شرحت له فيه أن محافظة البحر الأحمر - تلك المحافظة الفتية التي تمثل كفاح بلدنا الصامت - في حاجة إلى الإرسال التلفزيوني أكثر من سكان الوجهين القبلي والبحري معاً ، لأن المغتربين في صحرائها - سواء كانوا من العاملين في المناجم أو البعثات الجيولوجية - في حاجة ماسة إلى الترفيه ، وأما العباددة سكان هذه المنطقة الأصلية فإنهم لم يروا التلفزيون قط ، وربما لم يسمعوا به حتى الآن ، ويعيشون في عزلة تامة عن المجتمع المصري . ونشر كلمتي كاملة وعلق عليها تعليقاً يحفظونه له حتى الآن .

وبالفعل تساءل الكثير منهم يوم أن نشرت هذه الكلمة . . وما هو التلفزيون ؟ ولما عرفوا ماهيته . . أكدوا أنها القيامة آتية لا ريب فيها . ويل تلك الهواية ، هوايات الصيد والتحنيط وتربية القطط والكلاب . . وقد يكون الغرض من الصيد هو الأكل ، أو يكون وسيلة إلى هواية أخرى هي التحنيط .

والصيد نوعان : صيد البر ، وصيد البحر .

وفي المعسكر تجدد أمام كل خيمة قفصاً به فئاة من الخبز . . وعلى القفص غطاء مرفوع مثبت بجبل يمسك به الصياد ويجلس بعيداً في ظلال الخيمة . . إلى أن يدخلها حمام « القطا » وهو جيد اللحم كغذاء فيشد الحبل ليفلق القفص ويحبس القطا .

كما يوجد «فخ» خلف الخيمة لصيد الأرانب الجبلية. وربما يصبح النهار على ثعلب نحيف في الفخ بدلا من الأرنب ، فالثعلب في تلك المنطقة مهما كبرت لا يزيد حجمها كثيراً على حجم الأرانب ربما بسبب قلة الماء والغذاء .
وأما صيد الغزال فلا يكون بالبندقية ، فهم جميعاً ليس لديهم سلاح . وما فائدة السلاح في هذه الصحراء ؟ . لا يوجد هناك لصوص . . ويندر وجود الوحوش ، لعدم توفر الماء . ووسيلة صيد الغزال هي السيارة ، يجرى وراءها السائق إلى أن يدركها النصب فتقف مستسلمة ، فيمسك بها من قرونها ، ويدير رقبتها لزميله ليذبحها . ومنها ما يكتب لها الإغلات فتدخل في أى خور فيتعذر عليه مطارقتها . وقد تمكن بعضهم من اصطياد غزالة بالليل بمجرد أن التقت بنور السيارة المبهرفأصاب العشى عينها ووقفت ساهمة لا ترى ما حولها ، فأمسكوا بها ، ورباها أحدهم في بيته فأنست للماز والجديان . . وصادقها الأولاد والأطفال .
وأما صيد البحر فهو السمك والكابوريا ، وكذلك «الاستكوزا» التي يعتقدون أنها تكسب من يأكلها من الرجال قوة جنسية خارقة ، ولهم في صيد القرش دراية كبيرة . كذلك منهم من يجمع قواقع بديعة الألوان من ساحل البحر الأحمر ويجهزها لتكون عقداً أو أسورة أو خواتم لزوجته ، أو «أباجورة» أو «ميدالية» ، يقدمها لها . . عندما يعود .

ويتكلم أحدهم عن «القرش» الذي قام بتحنيطه ويفوق طوله . . إرتفاع الإنسان ، وقصد في تحنيطه أن تكون أسنانه بارزة كالخناجر . ومنهم من برع في تحنيط الثعالب . . يعطيها حقنة فتخر مغشياً عليها بدلا من ذبحها أو خنقها ، ويضع بدلاً من العينين بليتان مطليتان «باللاك» الأسود البراق ، ويكون الثعلب في شكله النهائي مكشراً عن أنيابه في وضع الهجوم . ومنهم من تخصص في تحنيط رأس الغزال ، فإن اصطاد غزالة ، يفصل رأسها ويفرغه من كل ما به من لحم

ويتركه جلدًا على عظم ، ويعلقه على حبل الخيمة عدة أيام في الشمس فيجف تمامًا ويصبح نقيًا من كل رائحة . وأما جلد الغزال فإنه يدبغ ويقدم هدية لأى ضيف قادم من القاهرة لكى يصنع منه حقيبة لزوجته أو حزاماً أو حذاء لها . وقد تمكن أحدهم من اصطيد « الطريشة » أى الحية ذات القرنين بأن ألقى إليها خيطاً من الكتان بآخره قطعة صغيرة من الصوف فأطبقت على الصوف بأنبيائها وجذبها بشدة فسقطت الأنياب وأصبحت « الطريشة » بعد ذلك لا ضرر منها ، وحنطتها بطريقة بدائية بأن أفرغ جوفها وحشاها ، بالملح والقطن . وهى صالحة على كل حال لإثارة الدعر بين زملائه حينما يضعها لأحدهم في الفراش . وعثر في جوفها على اثني عشرة بيضة كانت على وشك الفقس ، وشكل البيضة مستطيل وطولها مثل عقلة الأصبع أو يزيد . وبذلك فقد نفعت هوايته في القضاء على ثلاث عشرة أفعى مرة واحدة .

وأما هواية « عبد الرحمن الذهبي » فهى تربية الكلاب . . .
وقد عرفنا من قبل مقدار اعتزاز « الذهبي » بكتابه حتى إنه يقدم لها الماء النقي ويفضلها أحياناً على نفسه . وعلى مدى الأعوام أصبح له شعب من الكلاب تنتشر في السهول والأودية تحفظ له الود وتدين له بالولاء .
كل الكلاب تعرفه . . وهو لا يعرفها إن كبرت . . ورحلت عنه أو رحل عنها .
وقد يمر أحد الرعاة على المعسكر ومعه قافلته الصغيرة فيهرع كلب من القافلة متجهاً إلى المعسكر ، فيعرف الناس أنه قد تخرج ذات يوم من عند عبد الرحمن الذهبي ، وأنه يترك صاحبه الحالى ليبر عن ولائه لصاحبه القديم . . فيحس الذهبي بالزهو والسرور . . وبشعور طيب أنه يوجد ما يحفظ له الود في تلك الصحراء . . التى يعيش فيها محروماً من كل ود . . ومن كل حنان .
وتصل السعادة بالذهبي إلى ذروتها ، حينما يكون في إحدى رحلات

الاستكشاف ويمر بالقرب من تجمع سكانى للعبادة أو خباء . . فتخرج إليه إناث من الكلاب تبحث عنه بلهفة . . لترحب به . . وخلفها جراؤها تهز ذيلها مقلدة لأمهاتها ، وقد يكون ترحيب الجراء . . ليس مجرد تقليد ، فرماشعرت - بغريزها الصائبة - أن الرجل صاحب فضل وتاريخ على الأمهات . وينظر الذهبي إلى الجراء وأمهاتها بعين دامعة وشعور فياض بحب « الأسرة » . . ولو كانت أسرة من الكلاب .

* * *

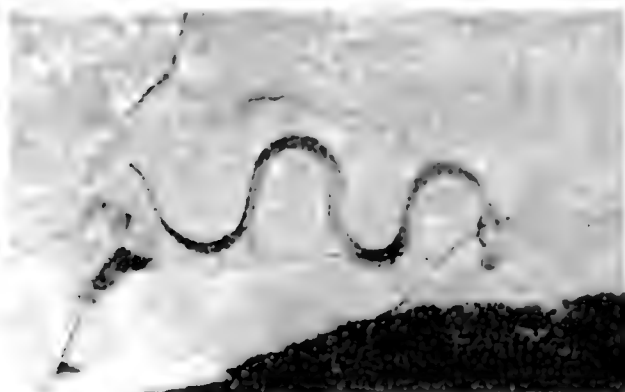
وعندما يأتي دور الكلام عن الفنون ، نجد « فن اقتفاء الأثر » أكثرها أهمية في تلك المنطقة من الصحراء . فهو لا يندرج تحت تلك الفنون التي تهدف إلى خدمة ذاتها ، بل إنه فن يخدم المجتمع الصحراوي أجل الخدمات فكم من إنسان ضل طريقه في الجبال ، كان الفضل في إنقاذه لله . . وكانت الوسيلة هي فن اقتفاء الأثر . كذلك له في الحياة العادية استعمال يومي ، وعلى وجه الخصوص في تعقب العير الشاردة . . والنعاج الضالة .

كما يساعد هذا الفن على معرفة الأخبار في مجتمع العبادة ، وعلى سبيل المثال ، إذا مر أحد الرعاة على مكان أسرة من أسر العبادة ولم يجد لها مكانها الذي كان يتوقعه . . يستطيع بمجهود بسيط أن يعرف أي اتجاه سلكوا ، وبذلك يمكنه أن يستنتج مكان إقامتهم الجديد . . ويفيد هذا الفن أيضاً في اكتشاف الجرائم وتعقب المهربين وغيرهم من المجرمين الهاربين في الصحراء .

ولكل فن قواعد يقوم عليها . والقاعدة الأساسية لفن اقتفاء الأثر هي أن « القاطع أحدث من المقطوع » أي أنك إذا وجدت أثراً لسيارة ، أو لقدم آدمية مثلاً تقطع أثراً آخر ، فعنى هذا أن صاحب الأثر القاطع قد وطئ المكان بعد صاحب الأثر المقطوع ، وأنه مرّ من هذا المكان في زمن لاحق . ويمكنك على



و... لو صعدتم هذا الجبل .. ونظرتم نحو
البحر ... لكانت العباددة على مرمى البصر



والقرية ... من هنا ...

أساس هذه القاعدة أن تقرأ قصصاً كاملة على أرض الصحراء .
ومثال ذلك . . . يوم أن ضل بعض الرجال . . . حديثي العهد بالصحراء
طريقهم واقتنى زملاءهم أثرهم ، وعثروا عليهم ، وتعجب التأهبون يومها حينما
لاحظوا أن زملاءهم يعرفون كل التفاصيل التي حدثت لهم منذ أن انصرفوا عن
الطريق ، وقالوا لهم إنكم انصرفتم في مكان كذا ، وجلستم للراحة عند جبل كذا ،
ولو صعدتم الجبل الغربي ونظرتم نحو الشمال الشرقي لوجدتم خباء أحد العبادة على
مرمى البصر ، ولكنكم واصلتم سيركم وكان يقودكم إلى هذا الاتجاه فلان وأنتم
تمشون خلفه ، وجلستم للتيمم ثم أقمت صلاة المغرب عند تل أسود صغير ، وجلس
فلان بعد الصلاة إلى جوار التل وأقسم أنه لن يبرح مكانه إلا إذا وصلته نجدة ،
لكنه خشي الوحدة والخلاء فغير رأيه وجرى ليلحق بكم . وقد اشعلتم النيران في
مكان كذا ، وبعد مسيرة ساعتين من هذا المكان حدث خلاف بينكم على الاتجاه
الذي يجب عليكم أن تسلكوا ، وكاد كل منكم أن يمشى في طريق ، وتصلحتم
بعد ذلك بفترة وجيزة ، ولكن فلاناً انشق عليكم وترككم وصعد الجبل على يري
قبساً من النور يهديه إلى مكان أى إنسان .

وباب الاجتهاد مفتوح في هذا الفن . فمن الممكن تمييز أثر المرأة عن الرجل وأن
هذه مشية حامل ، ومعرفة أثر البكر والثيب ، وكذلك من الممكن تقدير الوزن
والطول وما إذا كان الرجل أعمى أو مبصراً ، أو أعور الشمال أو اليمين ، وهل هذه
مشية عبادى أو مشية غريب ، وهل هو كهل أو شاب ، مستريح أو منهك ، متردد
أو واثق من طريقه ، خائف أو مطمئن ، وغير ذلك من الاجتهادات التي قد تحيب
مرة وتصيب أخرى .

* * *

وحينما يصل الكلام إلى الطب ، يعرض كل منهم تجاربه . . ونتائج أبحاثه ،

أ. أ. المصنوع ، الذي وودها على الواسع ، ان - - - - - ، وما تملح العذبة .
 يتكلمون ، من أنماج النباتات الصخرية ، مثل الخبيث ، والبر ، وحلف البر ،
 والحمل ، وألمة كل منها في الراجح الأموات . .
 ومول - - - - - ، الملقين :

- لا تستبينوا بهذه الوصفات فهي خلاصة تجارب ، وخبرات . أليس العلم عبارة
 من مشاهدات . . تتأسس عليها النظريات ؟ .

ومن قال اسأل الجرب قبل أن تسأل الحكيم . . لاشك أنه حكيم . وما هو
 أصل الأدوية في الصيدليات ؟ . . أليست تلك الأعشاب البرية ، والنباتات ؟
 كذلك يصفون للمقادير الجدد طريقة علاج مَنْ تلدغه العقرب أو الثعبان .
 وخبر إسعاف المصاب أن يخفق بالمصل ، وغالباً ما يبعث . . إلا إذا كان سبب
 الحول ، وجاءت اللدغة في أحد شرايينه . ويحفظ كل من بعث في الصخراء بشفرة
 في جيبه فإن لدغته العقرب فعليه أن يشرب مريض الإصابة ، ويمتص الدماء
 المسمومة على قدر ما يستطيع ، شرط ألا يكون في أي جروح ، أو يمتصها له
 زمانه إن كان في مكان لا يصل إليه فيه ، ويربط العنق المصاب بإحكام لإعاقه
 السم عن الوصول إلى القلب . وإن لدغ أحدهم وهو في مأمرية إلى المعسكر
 الرئيسي للبعثة فإنه يتكوى أكثر حفظاً مما له شأن في أود المعسكرات التابعة ، ففي
 المعسكر الرئيسي يضمن أن المصل يمر تالفاً ، لأنه محفوظ في الثلاجة ، وسوف
 يصون له بعض الثلج على الموضع المصاب فيساعد على تسكين السم في
 مكانه .

وأما « الطريشة » أي الحية ذات القرنين . . فهي عدوهم اللدود . . تدفن
 نفسها في الرمل لا يظهر منها غير قرونها ، وإن شعرت بعدو فإنها تنقفز لتلدغه وتغرز
 في لحمه أنيابها ، ولو حدث هذا فإنهم يطلبون من الرجل أن يقول وصيته وما له

عند الناس . . وما عليه من ديون حتى يبلغوا أهله بما قد يجهلون عن أحواله .
ولكن إرادة الله فوق كل القوانين . .

وإن لم يكن عمره قد انتهى فإنه يعيش حتى لو لدغته الطريشة .
وإليكُم مثلاً عبد العاطى عباس . . ألم تلدغه الطريشة ذات يوم ؟ وما هو ذا
يجلس الآن بينكم ؟ .

ويترك عبد العاطى وأبور الجاز الذى يجهز عليه الشاى ويلتفت إليهم قائلاً :
- حدث هذا حينما دخلت خيمتى فى إحدى الأسبقيات وكنت جالفاً ،
فوجدت « قفة » الخبز من تحت السرير ومددت يدى بداخلها لأخرج منها رغيفاً
فأحسست بلدغة بسيطة ونظرت فإذا طريشة ملعونة لا يزيد طولها على شبرين عالقة
بها ، فصرخت وألقيت بها على الأرض ، ووجدت مكان الجرح ينزف بشدة
وأردت أن أوقفه فنصحنى بعض الكبار أن أتركه ينزف حتى ولو صنى دمي كله .
وقالوا لا تكتم الدماء يا بنى فإنها تعلرد السم خارج جسمك ، واحمد ربك
يا عبد العاطى لأن أنياها لم تنخلع فى لحمك ، ونقلت إلى المستشفى وبقى جسمى
متضخماً كالقيل لمدة شهر وتم الشفاء بحمد الله .

ويعلق أحد الحاضرين : إنه رجل محظوظ ، إذا قورنت قصته بذلك الرجل
الذى جاء مع إحدى البعثات منذ عدة سنوات ، وحط رجال البعثة رحالهم فى
أحد الأودية . . وأرادوا أن ينصبوا خيامهم هناك ، وبينما هم يطهرون المكان
الجديد من شجيرات الشوك لدغت الحية اللعينة ذلك الرجل ووجد أن أنياها فى
لحم أصبعه ، وكان إيمان الرجل عميقاً وعزمته من الحديد ، فأخرج من جيبه
مطواة صدفه وصاح قائلاً : الله أكبر . . وقطع بها أصبعه ووضع فى جيبه ،
وأدركه زملاؤه ، ومن كرم الله كانت معهم سيارة فسافروا به إلى مستشفى القصير
لإسعافه . . وكتب له الشفاء .

ويقول أحدهم :

- اسمعوا يا رجال . لا علاج لمن تلدغه الحية ذات القرنين إلا الحمام الزغلول ، فإذا لدغت أحداً منكم فعليكم بعدد موفور منه وافتحوا بطن كل واحدة بدون أن تلدجوها ، وألصقوا بطنها المفتوح على الموضع المصاب ، وسوف تجدون أن لون دم الحمام الفاتح تحول إلى لون أسود ، فألقوا بالحمامة . . وجيثوا بواحدة غيرها وهكذا حتى تصلوا إلى الحمامة التي لا يتغير لون دمها .
ويقول أحد المتعلمين :

- والله إن منهن العلم الحديث لا يرفض التجربة وعليه أن يتقصى ما وراء كل مشاهدة من علل ، وهذه ظاهرة تستحق البحث والدراسة ، ولو كان صحيحاً أن لون دم الحمام يتحول إلى أسود فعنى هذا أنه حدث تفاعل بيوكيافي بينه وبين السم ، ولذلك فإن تفقت التركيب الكيافي المعقد للسم ، أمر ليس ببعيد .
فيرد عليه أحد العبادة ساخرأ :

- ومن أين لنا هنا بالحمام الزغلول يا أستاذ ؟ . هذا مطلب عسير المنال ، إن الكي بالنار أنجح علاج بشرط أن يأتي الكي بعد بتر العضو المصاب أو قطع جزء من لحمه ، وهذا العلاج ناجح سواء أكان المصاب رجلاً أم عنزاً أم جملاً أم حماراً وقال : أرني يدك يا عبيد ، لقد قطع جزءاً من لحم يده بشفرة كانت في جيبه حينما لدغته الحية اللعينة ، وشوى مكان الجزء بشظية من النار ، وحمد الله فقد كتبت له النجاة .

وعلى كل حال فإن الوقاية خير من العلاج ، وأخرى بكم أن تعرفوا طباع تلك الزواحف والحشرات وأخلاقتها . . فتجنبكم المعرفة كثيراً من شرها . لا تحركوا الجلايد الموجودة في الوادي أو على جوانب التلال إلا بحذر ، ولا تجلسوا على الأرض بجوار أوانٍ أو « باستيلات » بها ماء ، وإياكم والجلوس بجوار براميل الوقود

أو على المسكوب منه فالطريشة تحب راحته ، وإذا تبول جمل أو حمار بجوار الخيمة عليكم بإزالة آثاره فوراً فإن راحته جذابة للثعابين . ولا تقربوا خزان المياه الثابت في مكانه إلا بكل انتباه ، وإن ذهب أحدكم إلى الغائط فلا يكون في الظلام . . . وعليه أن يفتش « المستراح » جيداً بعضاً طويلة وهو على بعد قبل أن يجلس فوقه ، ولا تستعملوا الناموسيات في الصيف مهما تكاثف عليكم الذباب . . . فهو أرحم على كل حال من العقارب ، إن العقرب تتسلق الناموسية وتلقى بنفسها من على فوق النائم ، ألم تسمعو بالرجل الذي كان ينام في سريره تحت الناموسية شبه عار في الصيف فلدغته العقرب في مكان حساس من جسمه فمات على الفور ؟ . وعليكم بتفتيش الفراش جيداً قبل النوم ، وإياكم أن تلبسوا أى ملابس قبل « تنفيذها » . ولا تطردوا الخنافس من خيامكم فهي عدو العقارب . ومن أراد منكم غاية الحذر فليضع في خيمته نبات الشيح فإن تلك الحشرات لا تطيق راحته . . . أو يفرش على أرض الخيمة جلد ماعز فهي تنفر منه . وإذا لدغ أحدكم في الظلام ولم يعرف أى نوع من الحشرات لدغه . فليطمئن إذا شعر بالألم . . . إنه « العقرب الشمسى » . . . شديد الإيلام ولكنه غير سام .

ولا داعى للاعتداء على الثعبان بدون سبب . . . إذا تمكن أحدكم منه ، فإن أليفه لن يترك الثأر .

وإن كنتم في الأودية . . . فاحذروا الثعابين الراقدة محتمية بالظلال ، فلا أمان لكم من شرها إلا وأنتم فوق قم الجبال . ومع ذلك فلا تطمئنوا لتلك القمم إن كانت مكونة من صخور الجرانيت ، فكثيراً ما يتسلقها الثعبان . . . عن طريق « الخيران » . . . بحثاً عن الماء البارد الذى يتجمع عادة في الجيوب والحفر النقر بعد هطول الأمطار .

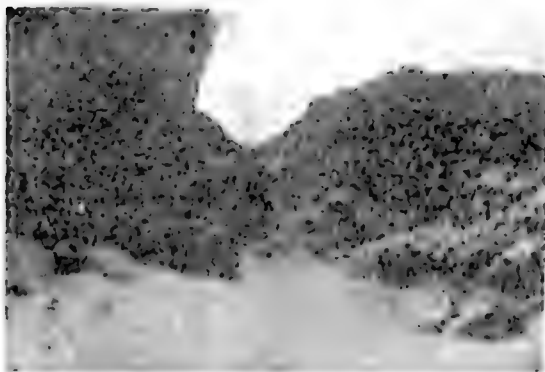
ولا تجلسوا تحت الأشجار في الأودية إلا بعد أن تتأكدوا من عدم وجود

الثعبان فوق الأغصان . وهنا ينظر البعض إلى عبد الكريم فيستسم قائلا :
 - يغفر الله لي ، فقد أجبرني ثعبان لثيم على الخروج من الصلاة . حدث ذلك
 عندما تيسمت وذهبت لأصلي العصر في ظلال الشجرة البحرية . وما إن ركعت
 الركعة الأولى حتى فوجئت بثعبان يسقط على رأسي من فوق الشجرة وشعرت
 بجسمه البارد يلتف حول عنقي . . ولا أعرف حتى الآن كيف نصرفت في لحظة
 الدعر هذه للتخلص منه . . فقد وجدت نفسي بعيداً عن الشجرة بعد أن قفزت
 قفزة هائلة . . وعجباً أنني وجدت الثعبان راقداً لا يتحرك ، ولم يكن ميتاً بل مغشياً
 عليه . . وتبين لي أنه ابتلع عصفوراً . . كان قد وقف على رأسه المنتصب المتأهب
 للصيد . . ظن أنه أحد الأغصان . . فبلعه الثعبان ، واندفعت دماؤه كلها لخصم
 العصفور فارتخت عضلاته وخر مغشياً عليه كمن ينام فاقد الوعي بعد أكلة دسمة .
 وإذا كانت الوقاية خيراً من العلاج ، فإن « العهد » خير من الوقاية . . وخير
 من العلاج . .

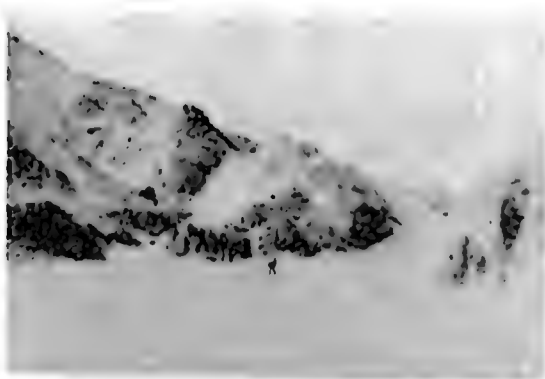
والعهد يأخذه الإنسان على العقرب أو الثعبان ، بالأبدا يقتله الإنسان إن تمكن
 منه مقابل ألا يغدر به الثعبان . وعجباً للإنسان ، وحبه للخير والسلام ، إلى
 الدرجة التي يقيم فيها مع الثعبان عهداً ، بدون موافقة الثعبان . وكثير من رجال
 الصالون فضّلوا اللجوء إلى العهد على الاحتماء بالعلم حتى بعض المتعلمين منهم .
 ربما لقلة ثقهم فيما وصل إليه الإنسان من علم ، أو لضباغ ثقهم هذه أمام خشية
 الحلية وهيبة الثعبان .

* * *

وحينما يصل بهم الكلام إلى « العلم » يسأل أحدهم :
 - هل عجز الإنسان مع ما وصل إليه من علم أن يجد مَصْلاً أو يُزِيافاً لسم
 « الطريشة » ؟ ، وماذا يفعل الباحثون والعلماء المصريون إذن ؟



وهو يعرف درباً بين الجبال . . . وسوف يغنيه هذا الدرب عن استعمال الطريق الملتوي الذي تمر به السيارات خلال المنحطفات



عند التقاء وادي زبدون بوادي أبو جرادى . . توحد
جبال من الشبست العتيق ، وهو أقدم صخور المنطقة عمراً

فريد أحدهم قائلاً :

- هدفهم الحصول على الماجستير والدكتوراه .
- بدون أن تخدم أبحاثهم هذه . . المجتمع الذى يعيشون فيه ؟
- قرأت اليوم فى مجلة روزاليوسف أن أحدهم يعد بحثاً عن الغدة الدرقية عند القرموط ١ .

- لقد وصل الأمر بهؤلاء الباحثين أن أصبحت أبحاثهم مضیعة للجهد والوقت . وقد سخر الرئيس جمال عبد الناصر بنفسه فى إحدى خطبه من باحث قضى حياته يدرس معدة الصرصور ١ .

- الرأى عندى أن دراسة غدد القرموط أو التوصل إلى معرفة شئ جديد عن معدة الصرصور أمر له فائدته العلمية . وربما يترتب عليه بعد ذلك فوائد اقتصادية أو صحية ، ولكن لا شك أن الباحثين بصفة عامة يسلكون الطريق السهلة ، لأن من أراد منهم أن يدرس التركيب الكيماى المعقد لسم « الطريشة » هذه ، فإنه يتأخر فى الحصول على درجته وتأخر ترقيته ، ويضيع وقته فى اصطیاد « الطرايش » . . بما فى ذلك من مشقة وخطورة ، وهو بحث على كل حال غير مضمون النتيجة .

فريد أحدهم قائلاً :

- لا تظنوا أن دراسة غدة القرموط أو معدة الصرصور . . لا تهدف إلى خدمة المجتمع . صحيح أنها لا تخدم المجتمع الصحراوى فليس عندنا صراصير أو قرميط ، إن أمثال تلك الأبحاث يارجال . . نخدم مجتمعهم هم . . أما نحن فهل يدرى بنا منهم أحد ؟

ومن أحاديث العلم فى الندوة ، أخبار الاكتشافات . . والثروات المعدنية وأماكن تواجدها فى تلك المنطقة من الصحراء . ومنها مثلاً أن الجيولوجيين بمصلحة الأبحاث الجيولوجية قد عثروا على خام الحديد الأسود فى وادى الكريم ،

وأما حماضات فإنهم يستخرجون منها الفوسفات . « والطلق » والحرير الصخرى موجودان في أماكن شتى من تلك البقاع ، وأم سميوكى بها النحاس ، وأم غيج يستخرجون منها الزنك والرصاص ، وفي « أبو غلقة » يوجد معدن الألمنيوم الذي يستخرجون منه عنصر الثيتانيوم ، والفواخير يوجد بها الذهب ، وأما وادى الجبال فإن فيه الزمرد . ولكن أجدادنا قدماء المصريين - غفر الله لهم - قد أجهزوا على المعادن الثمينة كلها ولم يتركوا لنا إلا « الغث » .

وأكثر المعادن التي يجهلونها هو هذا المعدن الذي تبحث عنه البعثة التي يعملون فيها ويطلقون عليه « اليورانيوم » ، وترجع صعوبة البحث عنه أنه ليس له لون ثابت بل له مئات الأصناف والألوان ، ويوجد في أنواع مختلفة وكثيرة من الصخور . ويقول رجل منهم :

- مرت الأعوام ونحن ننتقل بين الجبال ، ولم نصل إلى نتيجة ولا نرى أى إنتاج ، ماذا تستفيد الدولة من وجودنا هنا محملين هذه المشاق ؟ ويرد عليه رجل آخر قائلاً :

- إن الدولة لا تتقدم بيسر أو بسهولة ، إن هذه المهنة يا رجال . . تحتاج إلى عزيمة صادقة . لقد انقضت عدة أعوام على بعض الدول تبحث عن اليورانيوم ، وما زالت تواصل التنقيب . بدون ملل أو قنوط ما دامت تسلك الطريق العلمى السليم .

.. وأين الإنتاج ؟

- هناك نوعان من الإنتاج : الإنتاج المنظور والإنتاج غير المنظور ، ويتساءل البعض عن الفرق بينهما فيجب المتحدث المتأثر : الإنتاج المنظور تجده عادة قصير الأجل ومن أمثلته : طحن الغلال ، وديج الجلود وصناعة الملابس والعلب المحفوظة ، وأمثلة تلك المشروعات يكون الربح والخسارة والإنتاج والمصروفات فيها

وانتم . أما إنساننا نحن « من سافر عن ورثته . . » طريقة » .

-- وكيف سدا ليح نضم هذا الشيخ من الإنتاج ؟

- بنسب النكاح . والمنازلة بالأسرة العالي لإنتاج مثل هذه الطريقة .

-- وعدم العثور على شيء . في هذا ذاته ، يعتبر نتيجة ، فهو يفيد على الأقل

في تفسيرين نلتقي السمت في المراحل القادمة .

ويشبه سدايهم عن العلم عادة بالكلام عن الجنس ، شأنهم في ذلك شأن

معظم الموضوعات التي يلغونها في الندوة ، تجدهم يتكلمون معنا عن الجنس

بطريقة خارضة بشجة أنه كلام عامي ، ويتكلمون عن تفسيالات كانوا يستمعون

من ذكرها عندهما تأولوا نفس الموضوع من قبل من خلال الدين ، يسرد بعضهم

تجاربهم الشخصية لأصحاب ، حتى من هو معروف بينهم بتفاليده المتحفظة . ويشرسون

تجاربهم في اللغة الأولى لازالة ، ثم ينسحبون من هو على أهبة الاستعداد له . .

ماذا يفعل بالتقدم . وسند بعض المتقربين يترجم لهم ما قرأه في الكتب الأجنبية

عن « العلاقة الجنسية » . وينسحبون بنسب إلى كلامه عن الأما كن السياسة المرافقة

في جسم المرأة . « يزعمون أن هناك « حيل » ممارسة من الدين ومن العلم سدا .

سواء . . بللما أن المقصد هو التعريف بنسب الجماع في الحلال .

» » »

وتحتل أخبار الحيوانات وتفسيراتها جزءاً هاماً من أحاديث الصالون . يتكلمون

عنها سواء بالمدح أو القذح . وكأن لها شخصية محددة تقارب شخصية الإنسان .

ومن أهم أخبار الحيوانات ، أخبار الجمل . . وقصص الخلافات بين الجمال

وأصحابها من العبادة وكيف أن جمل محمد العبادي صبر على صاحبه أياماً طويلة

في الصحراء منذ أن خرجنا من أقصى الجنوب عند ضريح الشيخ الشاذل إلى أن

وصلا إلى بئر العطشان ، واخذ الجمل اتجاها نحو البئر فهو يعرفها ، لكن صاحبه

أراد بالضرب أن يجبره على تغيير اتجاهه . فاعتبر الجمل هذا الفعل إهانة لكرامته وعدم تقدير لجهوده ، فنظر حوله فلم يجد أحداً في الصحراء الصامتة فقتله وأخذ يجرى هائماً في الأودية ، وكأنه يعرف أن التعامل بينه وبين بنى الإنسان قد انقطع إلى الأبد ، وربما كان يعرف أيضاً من كثرة عيشه في الصحراء وبحكم خبرته في تلك البقاع أن العبادة جميعهم أقرباء ، وأنهم لن يسكتوا على قتل قريبهم ، فاختار العزلة ومات حزيناً بين الجبال ، يشعر بوطأة الجرم الذى ارتكبه في حق صاحبه بعد عشرة طويلة في الصحراء ، وأنه نسى كل الذكريات في ساعة غضب .

وينرحم البعض على العبادى القليل ، على حين لا يعفيه البعض الآخر من المسئولية ، فقد أخطأ في طريقة تعامله مع الجمل . أليس الجمل حيواناً راقياً يفهم تماماً كما يفهم الإنسان ؟ ولو عرفتم أيها السادة طباعه وأخلاقه ، ورقته في معاملته لأنثاه لحكمتم بأنه ما كان ينبغي للمرحوم أن يعامله تلك المعاملة القاسية . وينصت الجميع في اشتياق . . فقد عاد الموضوع إلى الجنس مرة أخرى ، وهو أكثر الأحاديث سحراً لديهم في تلك البقاع حتى لو كان الحديث عن ناقة وجمل ويحكى سلمان قصة أبي الحصين الذى عشق القطعة . .

ويستنكر بعض الحاضرين هذا العنوان . . أمن المعقول أن يعشق الثعلب قطعة ؟ ! فبرد البعض أن الصحراء لا تقسو فقط على بنى الإنسان . . بل أيضاً يشعر فيها الحيوان بالحرمان ، فتحل الصداقة والحب محل العدواة والبغضاء . .

يقول سلمان :

-- كان ذلك في يوم من الأيام ونحن نحرس معدات الحفر والمناجم في أحد الأودية . . بعد أن غادرها الناس الذين كانوا يعيشون في ذلك المكان ، وانتقلوا منه إلى مكان آخر جديد ، وكانت عندنا قطعة صغيرة ، وصلت إلى سن البلوغ والنضج ولم تجد أى قط يعيش معها وتقضى حياتها معه سعيدة وطبيعية ، وكنت



قرية منجية . . تقع في قلب الصحراء المصرية ، هي
ثمرة بحث طويل أسفر عن اكتشاف المنجم



منظر عام في وادي أبو جرادي ، حيث اكتشف أول مظهر لمعادن اليورانيوم
في صخر الجرانيت لأول مرة في صحارى مصر

الاحظ أنها من كثرة شوقها إلى الذكر تأفى بأفعال فاضحة وكأنها امرأة لعوب ، وذات مرة التقت بأبى الحصين (يقصد الثعلب كما يطلقون عليه في بلاد العبادنة) وأظن أنه كان يعاني نفس الحرمان ، وبدلاً من أن يتبادلا العراك ، نمت بينهما الصداقة . . ووصلت إلى درجة الحب ، وأنجبت القطة صغاراً . . من القطط ولكن (بوزها) مدبب وذيلها كث الشعر مثل أبيها أبى الحصين .

وتجدهم يصفون الطيور المهاجرة التي تمر على تلك البقاع وألوانها الزاهية البديعة ، يستبها بها العطش فتبهط في المعسكر ، ويتغلب التعب عندها على الخوف فتجدها ساكنة مستسلمة . . لا تحاول الحركة معها اقتراب منها أى شخص ، ويشفق عليها الناس ولا يحاولون اصطليادها أو ذبحها ، فهم يتطيرون من الاعتداء على أى طائر يلوذ بهم وهو منهمك وعطشان ، ويخشون على أنفسهم من مصير مماثل في مجاهل الصحراء .

كذلك يعقدون مقارنة بين شجاعة العصفور وجبن الغراب . وهذه ظاهرة متكررة تجدها في كل ساعة من ساعات النهار أمام أى « باستيلة » من الماء تكون موجودة بجوار الخيمة أو المطبخ ، يتقدم العصفور عند شعوره بالعطش نحو حوض « الباستيلة » الساقط من الغسيل حتى ولو كان يوجد أمامه رجل يفتسل . أما الغراب فإنه يقف بعيداً عن الماء يكاد أن يفتك به الظمأ ، فاتحاً فيه على مصراعيه . . يخرج منه لساناً أحمر كأنه يستغيث . ولكنه يظل واقفاً لا يجرؤ على الاقتراب . ويعطف الناس على العصفور الشجاع ويفسحون له الطريق للشرب ، ويزدرون الغراب لجبنه ويطردونه .

* * *

وبدون مناسبة يقول أحدهم :
— هل تعرفون أن أكثر أجزاء الجسم تعبيراً في أى مخلوق هي العين ؟

وينظر إليه الناس بلا تعليق فيقول :

لى المعدرة أننى قطعت عليكم الكلام فإن هذا المنظر ما زال يؤرقنى وأشعر
بالرعب بسببه كلما أويت إلى فراشى . كنت أتمشى وقت الأصيل بالقرب من
المعسكر فرأيت إحدى الزواحف لها عينان واسعتان . تحديقاً إليها ، وظننت أنها
« الطريشة » أى الحية ذات القرنين . ولم أكن رأيت واحدة منها من قبل
فهممت إلى حرك كبير وضربت بها به فقسمتها شطرين ونزفت منها الدماء وتحرك رأسها
مبتعداً عني ، ولكننى التقيت حركاً آخر وانقضضت به على الرأس فنظرت إلى نظرة
أفظع من أن تصفها الكلمات وأصابتى الملح فألقيت بالحرك وأخذت أجرد ،
مدعوراً إلى أن بلغت خيمتى

ويعلق أحدهم قائلاً :

— إن الزواحف تغضب وتطلب الثأر تماماً مثل بنى الإنسان . حدث ذلك
عندما كنت فى أحد الأودية ، وجدت ثعباناً فضربته بجمر ثقيل سقط على رأسه
فقتل لتوه ، وفوجئت بوليفه ينقض على فوليت الأديار ، وعجبا أننى وجدت
الثعبان يجرى فى الوادى بسرعة كبيرة رافعاً رأسه بغضب . . مصمماً على الفتك
بى ، وجرت ساقى بسرعة لم أعدها وكأنها تدفع بمحرك قوى من الفزع ، وكانت
المسافة ثابتة بينى وبين الثعبان ، وهو من الإصرار والتوعد بشكل يؤكد أننى هالك
لا محالة . ووصلت إلى السيارة وأدركت المحرك . . وتحركت والثعبان ينقض على
بابها ، ونظرت إليه فرأيتة يسقط فجأة فعدت بالسيارة ومشيت إلى جواره حذراً
لكى أعرف ماذا حدث له ، فوجدت أنه « فرقع » من الغيظ .

ويضحك الناس فرحين بنهاية القصة ، ولكن رجلاً من أهل الصعيد يقول
وهو جامد الوجه كأنه حزين على مصير الثعبان .

قال الرجل :

— لا تشمتوا فى الثعبان ، فهو شهيد الكرامة . لقد اعتدى عليه عدو جائر وقتل وليفته أمام بصره بلا أى ذنب جناه ، فاستنفر عزته للثأر وكاد أن يحقق مراده ، وفى لحظة واحدة شعر بالضياح وبالفراغ ورأى عدوه ينطلق على مركبة جبارة من حديد مقهقهة . . ساخراً من مأساته ، فأت كمدأً وغيظاً .
وتعجب الرجال من منطق زميلهم ابن الصعيد . . أن يدافع عن ثعبان بهذه الطريقة وسخروا منه . فقال :

— لا تسخروا ولا تتعجبوا فقد يموت بعضكم كمدأً لو اعتدى عليه جبار ولم يظفر به ، تماماً مثلما حدث للثعبان .

وبدأ الناس ينظرون إلى الرجل بنوع من الجدية . فاستطرد قائلاً :
— صور الكاتب الكبير نجيب محفوظ هذا النوع من « الفراغ » فى إحدى قصصه القصيرة . . لو قرأها أحد منكم لشعر بالراء للمقهور الذى لم يظفر بعدوه حتى لو كان هذا المقهور ثعباناً .

* * *

وقال الرجال : قل لنا ما هى الصورة التى رسمها نجيب محفوظ .
قال : كان شاباً يافعاً ، عاش فى زمن الفتوات ، وأحب فتاة كانت كل أمه وحياته وكانت الفتاة تحبه وتعتبره مثلاً أعلى وزينة الرجال . وفى ليلة الزفاف رآها فتوة الحى تحتل فى ثوبها الأبيض فأعجبته ، وقرر أن تكون له . فأمر العريس أن يطلق عروسه ، وذعر العريس للخطب ، فاعتدى عليه الفتوة وطرحه أرضاً وداس بجذائه رقبته طالباً منه أن يطلق عروسه ، أو يعصر عنقه تحت الحذاء .
وفى تلك الليلة ترك الشاب المسكين القاهرة وهاجر إلى الإسكندرية وكل أمه أن يصبح قوياً وله رجال أقوياء مثل الفتوة . ونذر حياته للثأر وظل عشرين عاماً يكافح لتحقيق حلم واحد أصبح كل هدفه فى الحياة . . أن يعود إلى القاهرة على

رأس رجاله للانتقام ، ويطرح الفتوة على الأرض ويضع قدمه فوق رأسه على مشهد من أهل الحى كله كما فعل به من قبل ، ويأمره بأن يطلق زينب للعود إلى حبيبها الأول . وأخيراً تحقق له أمله وسافر معه رجاله إلى الحى القديم الذى هاجر منه ذليلاً مهاناً . وذهب إلى بيت الفتوة فوجد الظالم قد مات ، فحشى إلى حبيبته فوجدتها امرأة تختلف تماماً عن زينب الأولى . . أرملة سمينة لا تعرف الحب . . ولا تفقه للبطلولة معنى ، وفترت أحداث الذكريات الأليمة عندها وأمست باهتة ، وأصبحت المرأة لا تبالي قليلاً أو كثيراً إلا بترية الأولاد وتجارة البيض . فشعر بنفيذ وفراغ ألم ربما فتك به بعد ذلك فى « الحلاء » مثلما فعل الغيظ بالشعبان .

وبعد أن سمع الناس قصة نجيب محفوظ ، أخذوا يقولون :
 -- إذن فإن حب الانتقام صفة مشتركة بين الإنسان والشعبان . ترى هل هى فى أصلها صفة إنسانية موجودة عند الشعبان ؟ . . أوهى نخصلة شعبانية موجودة عند بنى الإنسان ؟

* * *

وكأى ندوة من الندوات لا بد أن يعرج فيها الحديث على السياسة ، ويبدأ بالسؤال التقليدى المعروف :

-- ما هى قوة إسرائيل بالمقارنة إلى قوتنا نحن المسلمين ؟
 - إن مصر عندها أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط . يكفى أن جال عبد الناصر لديه « القاهرة » و « الظافر » ، وهى صواريخ « أرض - أرض » أيها الإخوان ، نستطيع أن نضرب بها « تل أبيب » ونحن هنا قاعدون .
 ولا يابه العبادة كثيراً لأمثال تلك الموضوعات ، أولاً لأنه ليس لديهم أدنى شك فى أن مصر تستطيع أن تمحو إسرائيل من الوجود بلا أى عناء إن أرادت

ذلك ، ثانياً لأنهم لم يجربوا التعرض للغزو الأجنبي منذ أن هاجمهم رجال المعازة وتصدى لهم أبطال من العباددة مثل الشيخ أبو جرادی رحمه الله . كما أنهم لم يذوقوا ويلات الحروب الحديثة فهم في بلادهم منذ أجيال طويلة آمنين . ومع هذا فإنهم متحيزون بلا شك للبطل العظيم جمال عبد الناصر ، يسيطون مواقفه ضد الإنجليز واليهود ، وصموده إزاء طغيان الدول الكبرى ويحكمونها في ملاحم للبطولة تشبه ملاحم الأقدمين أمثال « سيف بن ذى يزن » وأبو زيد الهلالي وعشرة ابن شداد . ويقول أحد الرجال :

— مهما كانت إسرائيل ضعيفة فعلينا أن نلحد منها فهي على الأقل ذكية وخبيثة ، وقد ينتصر الخبيث الضعيف على القوى الصريح .

هل لديكم تفسير لما سمعناه اليوم من إذاعة « تل أبيب » ؟ . لقد أذاعت أن مكثف القصير قد تعطل ، وأصيب البلد بأزمة في الماء ، فلجأ المسؤولون إلى الاحتياطي الموجود بالخرزان ، ووقف أهل البلد صفاً . كلُّ معه صفيحة ليشلم حصته ، وامتد الطابور من المكثف حتى وصل إلى دكان « محمود لواس » ! ! ، بالله عليكم كيف علمت إسرائيل بهذا الخبر البسيط وباسم صاحب الدكان ؟ ! وكان يجلس بين المثليين رجل اشتهر بالصمت ، لم يشترك في أى حديث أو حوار منذ بداية الندوة ، ولقد عرف عن الرجل بأنه لا يشد إلى أى موضوع إلا إذا كان عن « السياسة » . وعندما وصل رفاقه إلى تلك النقطة خرج عن صمته ليسألهم جميعاً مؤثلاً عجيباً :

— هل منكم أيها الأخوان من يعرف أننا قد أبرمنا عقداً . . مع إسرائيل نشترط فيه عليها أن إذا أردت الهجوم على مصر ، فليس من حقها أن تقوم بهذا إلا من جهة واحدة محدودة هي قناة السويس ؟ ! واستنكر بعضهم طريقة السؤال وما فيه من تهكم ، ومنهم من قال إن الرجل

سكت دهرأ ونطق كفرأ . ولكنه استطرد بهدوء وثقة دون أن ينظر إلى وجوه الحانقين . قال . . كأنه يحدث نفسه :

— أجوب بلاد العباددة من الشمال إلى الجنوب ومن ساحل البحر الأحمر شرقاً حتى الصعيد غرباً ، فلا أجد موقعاً عسكرياً واحداً ، أو أى نقطة للمراقبة . هل رأى أحد منكم « البديل الصفراء » من قبل فى تلك البلاد . . اللهم إلا أفراداً نادرين يراقبون المهريين ؟ ! .

ورد عليه واحد من المثقفين :

— اعلم يارجل أن الصحراء الشرقية مانع استراتيجى طبيعى ، تحمى ببجهاها وادى النيل بدلا من الجيش . وبلاد العباددة بصفة خاصة ليست فى حاجة إلى حماية فهى بعيدة .

وأعجب الرجال جميعاً برد الرجل المثقف ، وأخذوا يتهمون على الرجل الصامت ولكنه تساءل بصوت هادئ قوى ، سؤالاً كأنه يتضمن بين نبراته إجابة فيها نذير .

— بلاد العباددة هذه . . بعيدة عن ماذا يارجل ؟ ! اتق الله . . أليست متاخمة للصعيد ؟ ، وهل الصعيد قطر آخر غير تابع لمصر ؟ . وكيف تتصور إن إسرائيل لا تستطيع أن تضرب بلاد الصعيد عبر هذا الجزء من الصحراء بالوسائل الحديثة ؟ ، هل الأسلحة والمعدات الحربية العصرية أقل كفاءة من مركبات الأقدمين ؟

قالوا :

— بل إنها أكثر كفاءة ، يوجد لدى الجيش الحديثة طائرات فى الجو ، ومدركات ومصفحات على الأرض .

فقال الرجل :

- إن سيارات بعثتنا الجيولوجية تنتقل بين الجبال وتمسح السهول والأودية ،
هذه صحراء صخرية وليست رملية ، وهى أسهل ما تكون على المركبات الخربة ،
ولانتقف أرضها أبداً مانعاً استراتيجياً فى وجه الغزاة .

- أفصح يارجل .

- اعلّموا أننى واثق من أن الدفاع عن هذا البلد غير حكيم .

- جئنا بالدليل .

- ألم تسافروا من البحر الأحمر إلى وادى النيل فى تلك الطرق الجبلية الرئيسية
التي تصل ساحل البحر بالصعيد ؟ من ينظر منكم إلى قمم الجبال العالية يجد على
طول الطريق حجرات لا حصر لها فوق هذه الجبال . هل تعرفون الغرض من تشييد
تلك الأبنية ؟

قال قائل منهم :

- أظنها شيدت فى الماضى كعلامات لهداية الحجاج ، حينما كان السفر إلى
الحجاز عن طريق ميناء القصير بدلا من السويس .

فقال الرجل :

- كلا . . أيها الأصدقاء . إن أجدادكم الأقدمين كانوا يحقّق قادة عسكريين .

لم يكن لديهم اتصال سلكى أو لاسلكى ، فأقاموا هذه الإنشاءات فوق الجبال
لحماية وادى النيل من خطر الغزو الأجنبى . فهى نقاط مراقبة موجودة فى مواقع
مختارة بحيث تُتيح لمن يقف فى واحدة منها أن يرى « النقطة » الموجودة شرقها وتلك
الموجودة غربها . وكان يتناوب على كل منها حراس ساهرون بالليل والنهار . فإن
رأى أول المراقبين مراكب العدو فى أفق البحر الأحمر . أشعل النيران أمام موقعه
فيراها من يليه غرباً فيشعل شعلته وهكذا ، فيعرف قادة الجيوش الموجودة بين
الجبال بقدوم الغزاة فيهبون لاستقبالهم قبل وصولهم إلى أرض مصر ، ويباغثون

العدو بدلا من أن يباغتهم . ويصل خبر الغزو الأجنبي إلى القيادة المركزية في مدينة « قفط » في دقائق قليلة ، فتصدر الأوامر بقاء العدو والتصدي له قبل أن يصل إلى الشواطئ المصرية فضلا عن وادي النيل . إن واجب الدولة أن تحمي كل أطرافها . وإنني أتعجب يارفاق . هل مثانة الدفاع عن البلد تزداد مع تقدم الزمن أو تتخلف ؟ ! . لنا الله إن فسخت إسرائيل العقد الذي أبرمته معنا ، وقررت الهجوم من جهة أخرى غير قناة السويس .

* * *

حكاية . . من الصحراء

كانت وظيفة طلعت قبل حضوره إلى بلاد العبادسة سائق أتوبيس بمقر الهيئة التي تتبع لها البعثة الجيولوجية . ويبعد مقر الهيئة عن القاهرة خمسين كيلومتراً ، وأما العمل اليومي الذي كان يقوم به طلعت فهو نقل الموظفين من القاهرة إلى الهيئة ، ويظل طول اليوم نائماً في « الجراج » لأنه يسهر الليل على « تاكسى » يعمل لصالح إحدى الحانات بشارع الهرم . ولقد اشتهر طلعت بين العاملين وزملائه السائقين بأنه رجل فظ متعطرس . . غليظ القلب . . سليط اللسان . وهو قوى متين الجنيان . . لا يتورع عن الاعتداء بالضرب على أى زميل له من السائقين . . إذا أبدى له النصيح بخصوص احترام العاملين .

ذات يوم وهو يقود الأتوبيس من مقر الهيئة إلى القاهرة سمع أحد الموظفين يقول لزميل له إنه عاد بالأمس من « القصير » ، فقد كان في مأمرية لتوصيل بعض

المهات إلى البعثة الجيولوجية التي تقوم بالبحث عن اليورانيوم . . في بلاد العباددة . واستمر الحديث بين الموظفين عن بلاد العباددة هذه ، وطلعت يتشاءب وهو يقود السيارة لا يعير الكلام أى اهتمام . وفجأة وصل الموظف في حديثه إلى نقطة جعلت طلعت يفيق من سباته ، ويكاد أن يفقد معها صوابه ، كما جعلته يستغرق في التفكير إلى الدرجة التي نسى معها أنه يقود الأتوبيس . . على طريق مزدحم خطير . قال الموظف إن هذه المنطقة بها منجم مهجور للذهب . . استخرج منه الأقدمون كميات كبيرة على مدى العصور . وكان إلى وقت قريب ملكاً لإحدى الشركات الأجنبية ، فلما قامت الثورة وطردت الأجانب وأممت المنجم . . حدث في إدارته خلل وإهمال ، وتعطلت ماكيناته ، ونضبت موارد الذهب فيه بسبب توقف عملية الاستكشاف الجيولوجى حوله فتوقف عن الإنتاج . ويوجد بعض العباددة هناك ممن كانوا يعملون في المنجم يعرفون عروفاً في الجبال المتاخمة له . . تحتوى على ذهب خالص ، لكنهم لا يريدون البوح بسرّها . وانتقل الحديث إلى مواضيع شتى ، لكن طلعت ظلّ ساهماً مُستغرقاً في التفكير وفجأة نظر خلفه ، ولأول مرة شهد العاملون منظرأ غريباً عليهم . . لقد شهدوا ابتسامة واضحة على شفّى طلعت . . وهو يوجه سؤاله بأدب إلى الموظف قائلاً : من ذا الذى بيده الأمر إن أردت أن أنقل نفسى لأعمل في البعثة الجيولوجية ؟ وأجابه الموظف قائلاً : إنه رئيس قسم الجيولوجيا والحامات الدرية . انظر طلعت أمام مبنى قسم الجيولوجيا ، إلى أن رأى رئيس القسم ينزل السلم وحده ، فهرع إليه وحياه باحترام . . وأخذ عنه حقييته . . وقال : - سعادة الأستاذ الدكتور . . إن ضميرى يؤنبى . . وأشعر بغيرة وطنية تحطم معنوياتى ونفسى .

وتعجب رئيس القسم وسأله : دلنى يابنى كيف أستطيع أن أساعدك .

قال طلعت :

— إننى أسمع كل يوم بأخبار زملائى السائقين الذين يناضلون فى الصحراء ، سواء فى بلاد العبايدة . . أو الجنود منهم على خط النار . وكل يوم أتساءل كيف يتعرض هؤلاء الرجال إلى مثل تلك الأخطار . . وأنا فى بيتى . . هانئ النفس . . مستريح البال . إن « الثورة » يا سعادة الدكتور لها علينا فضل كبير . . وأريد أن أخدم وطنى ، فهل توافق على أن تنقلنى إلى البعثة الجيولوجية الموجودة فى الصحراء ؟

ونظر إليه رئيس القسم ، فوجد عملاقاً قوى الجسم ، فقال فى نفسه : ما تخيلتُ هذا الرجل إلا للصحراء ، وهل يوجد من يتحمل أكثر منه مصاعب الجبال ؟
وقال :

— سعيد أنا بشعورك الوطنى ، وإننى أبشرك بموافقتى ، وبأنك ستحصل على إضافة شهرية مقدارها عشرة جنيهات اسمها « بدل الصحراء » .
وسخر طلعت فى نفسه . . كيف يظن أن طموحه يقف عند هذا القدر من المال . ألا يعرف الأستاذ الدكتور أن عشرة الجنيهات هذه . . يحصل عليها « كبةشيش » . . كل ليلة من رواد « البار » ؟ !

ومنذ اليوم الأول لوصول طلعت إلى معسكر البعثة ، وهو يحوم حول العبايدة الذين يشتغلون فى المعسكر كعمال ، يبذل كل ما فى استطاعته ليوطد علاقته بهم ، يزورهم كل ليلة فى خيامهم ومعه السكر والشاى . . للسمر وتجاذب أطراف الحديث . واستطاع أن يقدم لهم خدمات كثيرة بلا أى مقابل ، وساعده على ذلك طبيعة عمله كسائق ، فكان يشتري لهم من قنا والقصير كل ما يريدون ، ويحاسبهم بأمانة . وعندما يركب أحد منهم معه فى السيارة يعامله برفق وأدب لم يسبق له أن عامل به أحداً من العاملين بالهيئة عندما كان فى القاهرة ، ويصر على أن يركب

العبادى معه في «كابينه» السيارة بدلا من الصندوق الخلفى . وبعد فترة طويلة من مجاهدة نفسه على المعاملة الحسنة . . وهى منهج من الكفاح لم يألفه . . ولا يتمشى مع طباعه الغليظة ، استطاع أن يكسب ثقتهم فعرف منهم مكان المنجم المهجور ، وعرف أيضا أنه لا يوجد من بين الأحياء من كانوا يعملون فى هذا المنجم إلا الشيخ سعيد ، وهو شيخ طيب من العبادة جاوز المائة من عمره يعيش على سفح جبل يبعد مسافة خمسين كيلومتراً عن المعسكر ومعه رهط من أولاده وحفدته وعائلاتهم .

وانتقل طلعت إلى المرحلة الثانية من خطته . وتهدف تلك المرحلة إلى توطيد علاقته بالشيخ سعيد ، وبدأ يعرض عليه الخدمات المعتادة التى يحتاج إلى أمثالها من يسكن منزلاً فى الصحراء . وقد لاحظ طلعت أن الشيخ - على الرغم من رقة حاله - كريم عفيف النفس ، يقضى معظم وقته فى الصلاة . وشعر طلعت بالضيق لما عرفة من قناعاته وعدم احتياجه لأى طلبات من الريف ، لكنه لم ييأس ، وعرف أن أحسن هدية يمكن أن يقدمها للرجل هى ماء من وادى النيل ، فاشترى بضعة «جراكن» من البلاستيك كان كلما سافر إلى الصعيد يعيها بالماء من إحدى الحنفيات العامة فى مدينة « فقط » ويحضرها خصيصاً للشيخ سعيد . وحتى هذه الهدية - على الرغم من احتياج الرجل لها - كان يتعفف عن قبولها قائلاً إنه ربما يحتاج إليها رجال البعثة أكثر منه . . وهم بها أحق لأنها تنقل كل هذه المسافة بواسطة سياراتهم .

وذات يوم مر عليه طلعت بالسيارة وانتظره حتى انتهى من الصلاة فسلم عليه وقبل يده ودعاه الشيخ إلى تناول الغداء معه ، فقبل دعوته شاكراً ، وبعد الانتهاء من الطعام قال له طلعت إنه سيدهب إلى أحد الأودية القريبة من المنجم المهجور لكى يجمع بعض أوراق نبات « الحرجل » من هناك ، لأن امرأته مريضة ولا شفاء

طسا إلا باستعمال منقوع هذا النبات بصفة مستمرة . وهو
يرحوه أن يخضر معه ليجمعا كمية منه . وركب معه الشيخ مرحباً .

وبعد فترة من السفر انخرف طلعت عن الدريق المعتاد وأخذ يجرى بالسيارة إلى
أن دخل بها في سرب دلييل بين جرفين متجاورين ، وأوقفت السيارة وطلب من
الشيخ أن ينزل منها ثم قال له :

هل تظن ياشيخ سعيد أنني جئت إلى بلادكم هذه من أجل عشرة جنينيات
شهرية فوق مرتبي ؟

فلم يفهم الشيخ مقصده وقال :

.. إن الحياة يابني كفاح . . والاغتراب من أجل لقمة العيش شرف .

فقال طلعت :

— سوف أوجز لك القول وأعرفك بما أريد : إنني ما جئت إلى هنا إلا لكي
تدليني على عروق الذهب الخالص في هذا المنجم المهجور ، ولك بما آخذه نصيب
يعينك على حاجتك فأنت رجل فقير .

ودهش الشيخ سعيد عندما سمع شخصاً يصفه لأول مرة بأنه رجل فقير ،
وقال : إنني غني يابني والحمد لله .

وتعجب طلعت فهو يعرف أن الشيخ جدّ فقير ، ولكن الرجل أفحمه حين
قال له :

ما هو الغني يابني لا . إنه عدم الحاجة ، وأنا لست محتاجاً إلا الله سبحانه
وتعالى . وماذا ينفعني الذهب أو كثرة المال في هذه الصحراء ؟ خير لي أن أقابل
ربي غنياً قريب فقيراً من أن أقابله سارقاً وخائناً للأمانة .

فانقض عليه طلعت وأمسك برقبته قائلاً بصوت بطيء وغلظ :
— والله لأقتلك في هذا السرب المهجور . أيها اللئيم العجوز ، وأدفلك هنا

بين الجبال . . فلا يَعْرِفُ قبرك من هذا المكان إنسٌ ولا جانٌ .
 وأخذ الشيخ يرجوه العفو والرحمة ، وتخلص برفق من يديه . . وتركه طلعت
 على أمل أن يكون قد غير رأيه : . . وقال له الشيخ :
 - إننى يابنى رجل مسلم ، وأنت فى عمر حَفَدَتِي وسوف يغفر لك الله إن
 رحمت شيخونختي وضعفى و

وانقطع كلام الرجل فجأةً وحدثت مفاجآت متتالية فى لحظة خاطفة . . كأنها
 البرق . فقد انقض الشيخ على الأرض بسرعة جنونية ، والتقط بين يديه كمية كبيرة
 من التراب وقفز قفزة هائلة وحشاً بها عيني العملاق وأخذ يكيّل له الضربات
 بصخرة من الجرانيت . . كانت ملقاة على الأرض . . فخر طلعت مغشياً عليه .
 والشيخ سعيد لا يستطيع بالطبع قيادة السيارة ليعود بها إلى دياره ، ولكنه
 يعرف أنه إذا تسلق الجبل واستمر يمشى نحو الجنوب فسوف يصل إلى خيام إحدى
 عائلات العباددة بعد مسيرة نصف يوم فقط . وعندما وصل إلى خيامهم استقل
 بعيراً من هناك واتجه مباشرة إلى رئيس الغرباء ، فوصل إلى المعسكر الذى يقم فيه
 بعد ليلة كاملة ، وقص عليه القصة . فأرسل معه سيارة لكى يسعفوا طلعت
 ويرجعوا به . ولما وصلوا إلى المكان الذى ضربه الشيخ سعيد فيه ، لم يجدوا السيارة
 فاقتفوا آثارها وتبينوا أنها اتجهت إلى مكان المنجم المهجور ، ووصلوا إليه فوجدوا
 السيارة تقف عند فوهة المنجم . وأخلوا يصيحون . . لكنهم لم يسمعوا إلا صدى
 صوته .

ودخول أى منجم مهجور له طريقة خاصة يجب أن تتبع ، وكذلك هناك
 قواعد للأمان يجب أن تراعى وإلا تعرض الداخل فيه لخطر الموت .
 ولم تكن معهم المعدات اللازمة لدخول المنجم لأنهم لم يتوقعوا أن يجازف
 طلعت بدخوله وحده . لكن الشيخ سعيد اعتمد على معرفته السابقة بحارات

المنجم ، فدخلها في الظلام الحالك وأخذ يتحسس طريقه بعضاً طويلة تسبقه حتى لا يسقط في وَجْرة (أى حفرة عمودية) قديمة مما كانوا يحفرونها لتتبع الحام . . إلى أن وصل إلى أول تلك الوجرات . . فأيقن أن طلعت سقط فيها وهو في الظلام ، فربط الشيخ سعيد وسطه بحبل متين ، وربط الحبل في صخرة عاتية ونزل الوجرة العمودية في الظلام الدامس ، وفي نهايتها وجد جسماً آدمياً فأمسك به ، واستطاع بمعوته الرجال أن يخرجوه .

وقد كان طلعت مغشياً عليه في حال بين الحياة والموت ، وكانت عظامه مهشمة من أثر السقوط ، ضعيف النبض يحتضر ، مختنقاً بغاز ثاني أوكسيد الكربون الذي يتواجد عادة في المناجم المهجورة . . ويتراكم بصفة خاصة في المستويات السفلى منها .

ورجع طلعت إلى القاهرة خائباً . . محمولا على « نقالة » . وهو الآن يعاني العجز وذل الفقر لأنه خسِر في هذا الحادث أعز ما يملك السائق . . فقد تهشمت قدماه .

* * *

قصر البنات

يظهر أن شهر العسل ليس بدعة ابتدعتها المدنية الحديثة ، بل هو ضرورة ، وإلا ما استطاع الإنسان الصحراوي البسيط ، البعيد عن هذه الفكرة أن يصل إليها ويثبناها .

يوجد مكان في الصحراء المصرية ، يقع بالجزء الجنوبي منها . . اسمه قصر البنات . . يجمع إليه الزوجان من البدو لقضاء فترة سعيدة بعد زواجهما بعيداً عن قيظ الصحراء ولطيف الجبال .

وقصر البنات ليس قصراً ، ولا يوجد به أى نوع من أنواع المدنية بمفهوم الرجل المتحضر ، لكنه بالنسبة للبدوى وبالنسبة للعروس الصغيرة التي لم تر خلال حياتها غير الجمال والماعز والجبال ، كل أنواع الترفيه المطلوبة في شهر العسل . فهو حائط طبيعي كبير من الحجر الرملي الصلب ، دائماً يوجد بجواره ظلال إما

من جهة الغرب أو الشرق ، ويجواره ينبوع ماء . . يتفجر من باطن الأرض .
وأعجب ما في المكان موقعه ، فهو لا يبعد كثيراً عن أحد الطرق القليلة التي
تشق الصحراء ، تمر عليه سيارة كل بضعة أيام ، فترى العروس لأول مرة في حياتها
التي لا تزيد في العادة على ثلاثة عشر عاماً جسماً معدنياً كبيراً . . زاهى اللون - له
بريق - مثبتاً على عجالات ومحملاً بأكياس كثيرة من الدقيق وقدر من العسل
والزيت وكل ما تشتهى الأنفس ، وربما يكون محملاً أيضاً بآدميين ويجرى بسرعة
رهبية أضعاف سرعة الجمل .

مخلوق عجيب اسمه السيارة طالما سمعت عنه العروس من بعض الرجال العظام
الذين يسافرون إلى الريف (صعيد مصر) مرة في كل عام .

وبانتهاء أيام العسل تكون العروس قد حققت كل ما هو مطلوب في رحلة
زوجية سعيدة بمفهوم أهل المدينة . فقد قضت أياماً جميلة في جو رطب ظليل ،
وشاهدت من مناظر المدينة ما لم تشاهده زميلاتها وصديقاتها اللاتي لم يتزوجن بعد .
ويحمل العريس بيت الزوجية على الجمل . . فهو مجرد خباء بسيط من الخيش
ويعود ومعه عروسه الصغيرة السعيدة . . لتحكى بعد ذلك مشاهداتها في « قصر
البنات » كعروس من بنات القاهرة قضت شهر العسل في ربوع أوروبا .

" " "

من قصص التمرد والعصيان

من أشهر القصص التي تحكى في ندوات السمر الليلية في الصحراء . . تلك التي تتكلم عن التمرد والعصيان .
وحينما تذكر الكلمتان تتجه الأنظار إلى مراد أفندى . . وكتبته « أبو مقشة » .
ويشيع الرجل بوجهه حياءً محاولاً تغيير موضوع الحديث ، ولكنه يجد أن أحدهم سوف يحكى القصة ويشرح للناس لماذا أطلقوا عليه « أبو مقشة » فيفضل أن يعرض قصته بنفسه لأنه أولى من غيره بالسخرية من ذاته .

* * *

القصة الأولى :

يقول مراد أفندى :

كان ذلك منذ عامين حينما جئت لأول مرة إلى الصحراء . وقد كان عملى السابق في القاهرة موظفاً متأنقاً بإدارة شئون العاملين . وأسند إليّ وظيفة صراف

البعثة ، فكنت أسافر إلى قناكل شهر تقريباً ، عندما أتسلم « شيك » المرتبات ، وميعاد وصول « الشيك » غير ثابت ، ننتظر وصوله إلى أول الشهر حتى منتصفه . وأعود إلى وادى عسل فأجد الرجال ينتظرون وصولي باشتياق وتلهف لأصرف لهم مرتباتهم لقضاء شئونهم وسداد ديونهم .

ذات يوم ناداني أحد العمال من العباداة باسمي « مراد » . . . هكذا بدون الألقاب ! . . . ولم أكن أعرف وقتها أن هذه طبيعتهم وأنه ليس لديهم فيما بينهم ألقاب ، وظننت أنه لا يدري بمنزلي وذاتي . . . أو درجتي بين الموظفين . وعزمت على أن أؤديه وأجعله عبرة لأمثاله ليعرفوا منذ البداية من أنا . وعلى البدوى الساذج أن يعرف أن مراد أفندى قادر بقلمه ان يعز من يشاء ويدل من يشاء . وقررت أن استخدم ماتدربت عليه من فنون « البيروقراطية » التي تهرست عليها في إدارة شئون العاملين . إن « البيروقراطية » قد أذلت في مصر العباد . . أليست قادرة على أن تدل العباداة ؟ ! .

ويتساءل رجل من الجالسين :

— وما هي « البيروقراطية » هذه ؟

فيستأذن أحدهم مراد أفندى في قطع روايته ليحجب :

— إنها تحكم الإنسان في أخيه ، حينما تسند إليه وظيفة مكتبية فيحولها عن الغرض منها وهو خدمة إخوانه إلى وسيلة لإذلالهم .

ويكمل مراد أفندى قصته وهو بين الموافقة والامتناع . يقول :

وحينما جاء ميعاد القبض استبقيت للرجل العبادى ثمانين قرشاً من مرتبه بدعوى عدم وجود « فكة » . وجاء الرجل بعد يومين للسؤال عن نقوده فأهملته وتجاهلته ثم أهملته إلى أن أنهى من عملي وهى أمامى ثم أمرته أن ينتظر خارج الخيمة إلى أن أناديه . وطال انتظار الرجل فدخل يذكرنى بحاجته فنهرته وطرده . كل هذا وهو

— على الرغم من شعوره بالإهانة — لا يفتن إلى أننى أقصدها . وكما جاء بعد ذلك يطلب نقوده كررت إهائته وطرده أمام الناس . . ليكون لهم عبرة ولكى يعرف أمثاله قدر الوظائف الحساسة ، وانصرفت إلى عملي المفتعل وكأئننى أسير أمور الدولة .

و ذات يوم تقرر أن يسافر هذا الرجل فى عملية استكشاف بقيادة أحد الجيولوجيين ، وتحدد موعد القيام من معسكرنا الرئيسى فى منتصف الليل . . على أن تكون العودة بعد شهر من البحث فى الجبال .

وقبل قيام « القول » طلب الرجل من الجيولوجى قائد الرحلة أن يتوسط له عندى فى إعطائه ما تبقى له من المال ، فحضر إلى الجيولوجى فادعيت أن ليس معى « فكة » ، فطلب أن أعطيه أى ورقة مالية كبيرة ويحاول هو صرفها ولكنى تهربت . وذهب الجيولوجى إلى رئيس البعثة شاكياً فجاء إلى الرئيس نفسه ، وتعبت ساعة أن رأيت على باب خيمتى كيف يترك عمله الذى لا ينقطع ويحضر إلى لأمر بسيط مثل هذا ؟ .

قال لى رئيس البعثة :

— جهت إليك يا مراد أفندى لكى أرجوك أن تعطى الرجل حقّه وتطيب خاطره بعد ما وجهت إليه من إساءات .

فقلت له : إننى لن أفعل ، وإن هذا ليس ميعاداً للعمل الرسمى بأستاذ . ونهرت الرجل أمامه واتهمته بإثارة الفتنة بين المثقفين . فأخرج رئيس البعثة من جيبه ثمانين قرشاً وأعطاها الرجل ، وداعبه وضرب على كتفه . . ثم تابط ذراعه ومشى معه كأنه ولى حميم ، إلى أن وصلا إلى سيارة الاستكشاف فأخذ يساعده على التندثر بجرامه . وركب الرجل على ظهر السيارة وأخذ يلوح له الرئيس والسيارة تغادر المعسكر فى آخر « القول » حتى اختفت تماماً فى ظلام الصحراء .

ويستطرد مراد أفندى قائلا :

- ولم يعجبني تصرف الرئيس . . واتهمته في نفسي بالضعف وأنه ليس لديه حنكة إدارية ، وأنه على الرغم مما وصل إليه من علم ودراسة ، يلزمه التدريب على فن الإدارة . . في إدارة شئون العاملين ، فهو لا يعرف كيف يستفيد بما لديه من سلطة في هذا المكان المنعزل . إن كلمة منه حرية بأن تفتح بيوتاً أو تغلقها ، والقرار منه يوز وادى عسل وسكانه ، ويسرى صدها إلى كل بلاد العبادة وإلى الصعيد ، بل إلى القاهرة ، ولا يخاسبه في تلك الصحراء رقيب . لماذا لا يستعين هذا الرجل بإداري* أريب مثلي ؟ ١٩ .

والله لو فعل لوضعت كل رجل في منزلته ، وعزلت بينه وبين الناس ، وجعلت الوصول إليه خيالاً ، ورفعت مكانته فوق القمر ، ولأصبحت هيئته تهر الجبل ، وعنده الناس إلهاً في وادى عسل ، واستعاذ بالرحمن من شره . أهل الوجهين هنا . . والعبادة أجمعون .

لكن العلماء قوم لا يفقهون . .

قسماً بهذا القلم لأستمر في إذلالهم حتى أكون سيداً عليهم كافة . وقسماً باللوائح ونخبائها . . التي تعلمتها من رئيسي وأستاذي مدير شئون العاملين ، لأكشفن عن جهل العلماء بالقوانين ، وأحول العبادة إلى عبيد .

وكان من عادتي أن أذهب كل أسبوع مرة إلى البحر الأحمر مع عربة البريد لأستحم وأغسل قيظ الأسبوع كله في الماء ، ثم أتوجه في المساء إلى المقهى الصغير الذي يطل على البحر . . وأجلس في استرخاء وراحة فاحتسى كوباً من الشاي . . وأقرأ صحف الأسبوع وأتمتع بالنسيم العليل بعد الغروب . . متأملاً الأفق اللانهائي ، ففترتاح نفسي وتتحسن معنوياتي . وجاء اليوم الذي تعودت أن أذهب فيه إلى البحر وكان يوماً شديداً من أيام شهر أغسطس ، تهب علينا فيه « رياح

السموم » فننام على الأرض ونقوم ثم ننام وهكذا ، ولا يوجد مكان في المعسكر إلا والسخونة فيه كأنها صَهْدٌ من جهنم ، حتى السرير والكراسى كانت سخونها لا تُطاق .

وقال لى السائق أن اسمى غير مدرج في أمر الشغل . قلت هذا سهو غير مقصود ، وذهبت إلى رئيس البعثة ومعى دفتر السيارة فقال بهدوء :
- وهل في اللوائح ما ينص على أن تستحم في البحر الأحمر يا مراد ؟ ، وهل جاء ذلك في خطاب مأموريتك ؟
قلت : وهجير الصحراء ؟

قال :

- دلى يا مراد أفندى على مادة واحدة في اللائحة تتكلم عن هجير الصحراء . . إننى أطبق القانون كما تطبقه أنت ، وإنك رجل إدارى أريب .
ولما سمعتُ صوت السيارة تحرك بدونى شعرت كأن رئيس البعثة قد وضعنى في المعتقل . . بل فيما هو أفسى ، لأننى لا أتصور معتقلا تصل فيه درجة الحرارة إلى هذه الدرجة ، فرجعت إليه لأسأله :

-- ومتى تسمح لى سيادتك بالذهاب إلى البحر ؟ .

فقال بفتور :

-- بعد ستة أشهر حينما تنتهى مأموريتك ، وأرجو أن تنصرف لى لا تعطينى يا مراد أفندى .

وبقيت فى لهب الجبال بدون أى نوع من الترفيه . كان نومى قليلا لارتفاع الحرارة بالليل كما هى فى النهار . وقاطعنى هذا المجتمع الصغير وصارت بينى وبينهم جفوة ، وساءت حالى واعتلت صحقى وكدت « أنفق » بين الجبال ، وشعرت بوطأة مرض نفسى يطلقون عليه الاكتئاب . وكان أكثر ما يضيقنى الذباب . .

فهو لا يُدَبُّ ولا يخاف وكأنا أوصاه الرئيس بى ليتلف أعصابى . وأخذتُ الألف
رئيس البعثة وأجامله عسى أن يرحمنى ، غير أن الرجل كان له قلب قد من
صوان ، فأخذتُ أمارض حتى مرضت ، وعافت نفسى الطعام وضعف جسمى
وخارت قوى . . إلى درجة أننى لم أكن أتمكن من القيام إلى « المنخر » لقضاء
حاجتى ، فكنت أتوكأ على مقشة من النوع الطويل أمسكها فى وضع مقلوب ،
عكازتها على الأرض ومكنستها تحت إبطى ، وأصبحت المقشة ملازمة لى . .
فأطلق علىَّ الناسُ « أبو مقشة » ولاحقنى هذا الاسم بعد ذلك فى كل مكان .
وفوجئت برئيس البعثة ذات ليلة . . يدخل علىَّ ، ليزورنى ويحادثنى فى شئون
شئى من الحياة وكأنه لا يوجد بيننا جفوة . وأصبح من عادته كل مساء أن يحضر
للسمر معى . . ويدير أعمال البعثة من داخل خيمتى .

وشعرت بصداقة نحوه . .

و ذات يوم فاتحته لأعتذر عما حدث بيننا بخصوص الرجل العبادى . . ولكنه
بادرنى بالاعتذار :

— لا تظن يا أستاذ مراد أننى أكون سعيداً عندما أضطر إلى تطبيق القانون بهذا
المفهوم . .

ولم يتكلم بعد ذلك نهائياً فى هذا الموضوع .

وتعلمت بعد ذلك من تقاليد الصحراء ، أن الكبير عليه أن يعتذر للصغير .

إلا فى حالات نادرة . .

وقال لى رئيس البعثة :

— عندما يضلّ رجل طريقه فى الصحراء ، أوتخرج سيارة عن طريقه

المألوف . . وتضيق فى مجاهل الجبال . . يومها سوف ترى بنفسك يا أستاذ مراد ،

مروءة العبادة التى علمتها لهم تلك الصحراء .

ويوم أن عادت الحملة سالمة شعرت بفرحة عودتهم وسعادة اللقاء . . ورجبت بالعبادى واعتذرت له كما اعتذر لى رئيس البعثة من قبل . ولما انتهت مدة مأموريتى . . شعرت برغبة أكيدة للبقاء . هنا فى البعثة . . وحتى الآن . .

" * "

وبعد أن ينتهى مراد أفندى من قصته ، يصمت قليلا ثم يتنسم بجنبته قائلا :
-- وإن قصتى هذه قصة بسيطة لو قورنت بقصة جعفر الأقرع يوم أن تمرد على الرئيس عبد الشكور .

ويثور جعفر قائلا :

-- إذا كنت تعترف من خلال قفستك بخطئك فإننى مقتنع أننى كنت على حق فى تمردى على الرئيس . إن الصمت الذى يتسم به هذا الرجل يخفى تحته اللؤم والطغيان . وإن الله سوف يعاقبه على إذلاله للناس بحجة حمايته لهم .
ويسأله بعض من لم يعاصر تلك القصة أن يرويها . فيحاول تغيير موضوع الحديث لكن واحداً من الأصدقاء يسردها باختصار :

القصة الثانية :

كان جعفر ، وهو شاب مستنير من إحدى قرى الصعيد ، يعمل فى وادى العيشان ضمن رجال الرئيس عبد الشكور . وهو ليس أقرع ولكنه أصبغ . . تنطق عيناه بالذكاء والطموح . وعلى الرغم من أنه لا يستطيع الكتابة فإنه قادر على القراءة ويمكنه أن يكتب اسمه بالكامل بدلا من استعمال « الحاتم » عند قبض الراتب وطلب الإجازات . وهو إلى جوار اطلاعه فى الصحف والمجلات القديمة إنه يمتلك مدياعاً صغيراً يستمع إلى براجه الثقافية المتنوعة أثناء الليل . وكان أكثر بطربه أحاديث الاشتراكية .

دورث الأعمه . ومنه تنقل في - ايامنا ونحن



ذات يوم تجرأ على بطانة الرئيس عبد الشكور وجالسهم بدون دعوة ، وتدخل في كل حديث يدور . . معارضاً ومُجادلاً . وكانت لجأته هذه تسبب كثيراً من الحرج للرئيس لأنه كان يناقشه بعبارة لا يستطيع الرد عليها ، فالرجل لم يتعود إلا أن يكون آمراً أو مأموراً ، ووجد أنه لو تمشى مع الأقرع في هذا الجدل فإن سطوته سوف تتعرض للاهتزاز .

وفي يوم أمره الرئيس أمراً فاعترض فنهزه وأهانته ، وأقسم الأقرع إنه سيغادر معسكر الرئيس عبد الشكور ، وإنه سوف يكون مجرمًا إن رضى بالهوان والبقاء في وادى العطشان . . ضمن المستضعفين .

والأقرع يعرف درياً بين الجبال يصل وادى العطشان بمعسكر الرئاسة في وادى عسل ، وسوف يغنيه هذا الدرب عن استعمال الطريق الملتوى الذى تمر به السيارات خلال المنعطقات .

وبعد أن هدّد بهذا وأقسم ، دخل خيمته وحمل « بقمجه » ونظر إلى الناس قائلاً بصوت لائر مرتفع : إلى متى تبقون هنا . . وترضون بالدّل والهوان ؟ فوجد نفسه مُلقى على الأرض مضرجاً بالدماء ، مكسور الفك منتفخ العينين وراح في غيبوبة .

وأفاق الأقرع وفتح عينيه فوجد أنه ممدّد على الأرض في ظلام دامس ، ولم يعرف أهو محبوس في مكان مظلم أم أن اللكمة التى تلقاها من عبد الشكور قد حوكت إلى أعشى . وتبين بعد ذلك أنه مقيد بحبال غليظة ومُلقى على الأرض في خيمة قديمة وراء أحد التلال . ومرت عليه أيام عسيرة كان يُلقى إليه فيها بكسر قليلة من الخبز اليابس وقليل من الماء تكفى فقط لبقائه ضمن الأحياء . وقضى على هذه الحال خمسة أيام ، عرف ذلك من تعاقب الليل والنهار . الذى كان يرقبه من ثقب صغير فى أعلى الخيمة .

وذات ليلة سمع صوت سيارة قادمة ، وأرهف السمع فتبين أنها سيارة « جيب » . وبما أنها من هذا النوع فلا بد أن يكون فيها أحد الجيولوجيين . . ولكن لماذا يأتي أحدهم ليلاً في غير ميعاد العمل ، وبكى حيناً توقع أن يكون رئيس البعثة قد علم بالخبر فأرسل من نחקق في الموضوع ويقتص له من الرئيس عبد الشكور . ووصلت السارة وإذا بداخلها رئيس البعثة نفسه . ولا يعرف أحد كيف وصل إليه الخبر ، فقد قعد خيام العمال مباشرة . . وبعد تحية مقتضية دخل في الموضوع وسأل الرئيس :

أخبرني ياريس عبد الشكور . أصبح أنك ضربت جعفر الأقرع ، ضربة هشمت فكه وأنتك تعتقله في إحدى الخيام بعيداً وراء التلال ؟

وأجاب الرجل بالإيجاب ، فهو ماآثر وداهية . قال :

— نعم ولو كان ابني ما فعلت به أفل من ذلك ، لقد تحملت منه ياسعادة البك انصرافه عن العمل . . وجهه للجدل . ولكني لا أتعمل أبداً وزره أمام الله ، إن خرج من وادى العغلشان تحت جناح الليل حيث لا يوجد إلا ضوء النجوم ، يريد أن يمشي بين الجبال في طريق غير معلوم ؟ ! فتقيدته وحفظته في الأمان لوجه الله العزيز الحكيم ، وعملت ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .

وكان هذا المنطق مثاراً لإعجاب الرئيس ، فأمر بالأقرع . . وأنبه على تمرده وطلب منه الاعتذار للشيخ الغليب ! . . الرئيس عبد الشكور .

القصة الثالثة :

كان عمر العبادي يعمل في أحد المعسكرات التابعة للمعسكر الرئيسي . وقد بدأ الشعور بالظلم في نفس الرجل . . حيناً رأى بعض زملائه من العمال يعملون في المعسكر ولا يفرجون للعمل في الجبال في رحلات البحث والاستطلاع ، وشعر بأن

ما يقومون به من أعمال الطبخ في « الميس » أو الخدمات شيئاً لا يذكر بالنسبة لطبيعته عمله الشاق .

وبدأت ثورته بأن قال للجيولوجي الجديد قائد المعسكر الصغير : أومن العدل أن تعاملوا من يعيش في المعسكر مترفاً في ظل الخيام أو الكشك الصباح ، وأمامه الماء البارد طول اليوم ، معاملة من يبحثون في الجبال ؟ وازداد سخطه حينما علم من أحد المثقفين أن العمل الذي يقوم به خطير ، وأنه سوف يموت ناقص العمر بدون أن يدري به أحد ، ولما سأل المثقف عن السبب قال له :

— ألسنت عامل تغريم ؟

قال : بلى .

فقال له المثقف :

— إن الوابور الذي تخزم به في الجبل طول النهار ، يثير غباراً كثيفاً تستنشقه ويدخل في جوفك . ألا تعلم أن هذا الغبار عبارة عن مادة اسمها اليورانيوم ، تسبب مرضاً خبيثاً اسمه السرطان ؟ ، إنه ينهش جسمك ويقتل خلايا الدم فيه ، وعليك أن تشرب كثيراً من اللبن كل يوم ياعمر ، وأن تتناول غذاءً قوياً فقد يساعد على مقاومة السرطان .

فذهب إلى الجيولوجي ثائراً ، واحتد عليه . وحاول الجيولوجي الشاب أ. يقنعه قائلاً : ألسنت أنزل الخندق معك كل يوم ياعمر واستنشق معك الغبار وأنتي معرض مثلك لنفس الداء ؟ ، كما قال له إنه مقيد بلوائح الحكومة ولا يستطيع له شيئاً .

واحتدم النقاش عدة مرات إلى أن أصبح عراكاً يومياً . وفي فجر أحد الأيام ، قفز عمر من السيارة الواقعة على أهبة الاستعداد

للخروج للبحث في الجبال ، وأقسم أنه سيمشى على قدميه حاملاً « زمزمة » من الماء إلى أن يصل إلى المعسكر الرئيسى فيشكو الجيولوجى الجديد إلى رئيس البعثة. ولم يصدق أحد أنه سيركب رأسه وقدميه ، ويمشى وحده في ذلك الطريق الوعر ، وأنه سيقطع المسافة سيراً على الأقدام . فتركوه في المعسكر وخرجوا إلى عملهم اليومى المعتاد . ولكن عمر كان صادقاً في قسمه . فخرج بعد تحرك السيارة بدقائق .

وكان يوماً من الأيام الطويلة في حياته .
فقد كان ذلك في شهر أغسطس الذى يكون لطيب الجبال خلاله ، ليس له نظير في أى شهر من شهور العام ، ونفذ منه الماء في الربيع الأول من الطريق وتورمت قدماه .

وصل عمر في منتصف الليل والجميع نيام . ففتح كلب في طرف المعسكر الفسيح وقام صاحب الخيمة ، فلربما هو جمل ضالّ اقتحم المعسكر ليمرح في ساحته ويلقى « بالباستيلات » الصغيرة أمام الخيام . . أو تلعب يبحث عن بطة أو دجاجة . فوجد عمر وقد أنهكه التعب . .

وكان أول سؤال وجهه عمر إلى الرجل :

— من هو الرئيس في تلك الأيام ؟

فعلم أنه محمد الغوانى .

وكان وقع هذا الخبر عليه أسوأ مما عانى طول يومه في الفيفاء . وأسقط في يده ، فهو يعرف أن الغوانى لا تأخذه رحمة بأى رجل يتمرّد على من يقودون المعسكرات التابعة . مهمها كانت الأسباب . وقد كان بوده أن تنشق الأرض فتبتلعه إشفاقاً من أن يقابل الغوانى وهو على تلك الحال . ولو أطاعه بدنه لرجع ليعتذر إلى الجيولوجى الشاب مهما كان اقتناعه بحقه في التمرّد . وأخذ يخبط كفاً

بكفّ قائلاً وهو غير مصدق للخبر :

- هل الغوايى من أهل الخطوة ، أو هو غفريت من الجن ؟ !
ثم سأل صاحبه :

- أمن المعقول أن يعود هذا الرجل من « بلاد بره » بهذه السرعة ؟ ! .
يقولون إن البلد الذى سافر إليه أبعد مما يتصور الإنسان ، إنه فى آخر الدنيا وبفصلنا
عنه جبال جرداء وبحر وريف ، ثم جبال أخرى سمعت أنها جبال خضراء فيها الزرع
والأشجار ! فرد عليه الرجل قائلاً :

- هل تعرف طائر الحديد الذى تراه صغيراً فى السماء ، وتسمع ازيزه فوق
السحاب ؟ ، إنه أسرع من السيارة أضعافاً مضاعفة ، وإن هبط على الأرض كان
أكبر حجماً من عشرات الجمال ، يركبه أى رئيس ويمشى به فى الدنيا الواسعة التى
لا نعرف نحن أبعادها . .

فاقتنع الرجل وأسلم أمره لله . ولم يغمض له جفن على الرغم من إرهاقه
الشديد . وعندما علم الغوايى بالأمر فى الصباح ، نكل بالرجل وجعله عبدة لمن
تسول له نفسه التمرد أو العصيان .

ومن العجيب أن هذا الرجل بالرغم من قسوة الغوايى عليه ، يكنّ له أعمق
الحب والاحترام . فقد حدث بعد هذا الموضوع بأعوام أن كان عمر يعيش معى فى
أحد الجبال ، وطلب منى أن يسافر إلى قرية على بعد سبع ساعات بالسيارة ،
والطريق إليها شاق وعسير . وسألته عن سبب رغبته فى السفر ، فقال إنه يريد أن
يذهب إلى كاتب القرية فيدفع له « شيئاً » (أظن مقداره عشرة قروش) ليكتب
خطاباً إلى محمد الغوايى ، فقد استبد به الشوق إليه ، وعرضت يومها أن يقوم أحد
من المعسكر بهذه الخدمة نيابة عن كاتب القرية فرد على بأن الكبير (يقصد حكماً
العبادة) قال حكمة معناها أن عليك أن تعطى الشئ لصانعه ولو أتعبك فى الثمن ،

وكاتب القرية عنده من الأسلوب المنمق ما يليق برجل طيب مثل محمد الغواي .
والواقع أن حب عمر للغواي يرجع إلى حقيقة أساسية . لأن الشدة المعروفة عنه
في قيادة البعثات . . تحمل بين طياتها أمناً هؤلأ الرجال العاملين في الجبال ، فهم
ينظرون إلى الرجل القوي نظرة كلها إعجاب واحترام ، ولأنهم في وسط هذه
الصحراء بما فيها من أخطار ، وبسبب خلوها من أى سلطة وضعية ، يقدسون قوة
الرئيس حتى لو وصلت إلى درجة الاستبداد .

القصة الرابعة :

هذه قصة رجل حاق به الهم من طول عيشه في الصحراء . .
كان صبحى - كما قلنا من قبل . سائقاً يعيش سيارته ولا يرضى أن يركبها سائق
سواه . وهو إن طلب إجازة لنفسه فإنه يطلب إجازة في نفس الوقت للسيارة ، فهو
ليس بالساذج أو الديوث الذى يسافر إلى بلده ويترك سيارته للآخرين يعيشون بها
ويركبوها الواحد بعد الآخر . وفى كل مرة تقبل إجازته وتُرفض إجازة السيارة
لحاجة العمل إليها ، فيتنازل عن إجازته مفضلاً البقاء إلى جوارها والاستغناء عن
رؤية أولاده وذويه .

و ذات يوم تصرف تصرفاً عجيباً لأفهم ماوراءه من ألم نفسه . . كان يعانيه .
كان صبحى يهوى صيد السمك من البحر الأحمر ، وله خبرة في اصطيد
« القرش » بسنارات ضخمة وأربطة مئينة .

ذهب مرة إلى « القصير » لإحضار الماء بسيارته « اللورى » وتسلم البريد .
ولكنه بدلا من أن يتوجه إلى المكثف ومكتب البريد ، ذهب إلى ساحل البحر
الأحمر في مكان قتل فيه زميل من قبل بواسطة سمك القرش . وترك صبحى حذاءه
على صخرة نائنة في داخل الماء ، كما ترك بعض أشياءه الخاصة ومنها أدوات الصيد

مقطعة الجبال بحيث يعتقد من يبحث عنه أن « القرش » جذبه بدلا من أن يجذبه هو ، ويتغذى على جسمه مثلما فعل بزميله من قبل ، ولما تغيب عن ميعاد وصوله إلى البعثة أرسلوا للبحث عنه في كل مكان بالقصير ، ثم ذهبوا خائفين إلى الموضع المشهور من ساحل البحر . فوجدوا حاجاته ، ورأوا سيارته واقفة بالقرب من الصخرة الملعونة وكأنها تنتظره حتى نهاية العمر .

وبالبرق أبلغ رئيس البعثة عن وفاة المرحوم صبحى ، وسافر وفد من الهيئة بالقاهرة إلى دمنهور . لكي يبلغوا الأسرة الخبر الأليم ، ويقوموا بالنيابة عن زملائهم بتأدية واجب العزاء .

وطرقوا الباب ووقفوا منكسى الرؤوس تترقق من عيونهم الدموع . . يرتبون الكلمات ويختارونها بصعوبة ، ليكونوا منها عبارة يبلغونها للأسرة المنكوبة . وفتح الباب . . وبدءوا الكلام بدون أن يجروا على النظر في وجه الشخص الذى فتح الباب . . وبعد أن انتهوا من قول الخبر الحزين . . نظروا فأخذتهم الدهشة . فقد وجدوا أنفسهم أمام المرحوم فعانقوه جميعاً فرحين . . وبعد أن زاوهم العجب وهدءوا . . سأله : لماذا فعل ذلك ، فصمت طويلا ثم قال :
— زهقت والسلام

وربما كان صبحى يحتاج إلى كثير من العطف والرثاء ولو لبضعة أيام — فرحب بتزول العقاب الصارم عليه مقابل أن يحظى بهذا الرثاء .

* * *

الرحيل

في إحدى أمسيات الخميس ، وصلت سيارة التمرين الأسبوعية وبها برقية لها شأن كبير .

وما جاء في تلك البرقية كان مهماً ، إلى الدرجة التي طار خبرها إلى كل مكان في بلاد العباددة ، وعلم بها السكان سواء من يعمل منهم في البعثة الجيولوجية ، أو الرعاة في الجبال ، كما امتد خبرها إلى العباددة ذوي الاستقرار النسبي على مشارف البلاد ، وعلم بها أهل « القرى المنجمية » التي لم يكتمل نموها بعد . . مثل قرية حماضات والفواخير وكذلك التجار الذين يتعاملون مع رجال البعثة منذ سنوات .

البرقية مرسلة من الدكتور رئيس البعثة الموجود بالقاهرة موجهة إلى « البعثة » . . يطلب نقل المعسكر الرئيسي بوادي عسل . . وكذلك المعسكرات التابعة له سواء في وادي العطشان أو وادي الكرم ، إلى جبل أم نقاط ، كما يقول

إنه سيصل إلى « قنا » في قطار الوحدة (أى الجرى) بعد خمسة أيام ، ومعه خبراء يوغسلاف سوف يعملون معنا لمدة شهر واحد ، ويطلب أن تنتظرهم سيارتان لاندروفر ولورى لنقلهم إلى مكانهم في المعسكر الجديد .

وما إن تسربت أخبار البرقية إلى خيام المعسكر المتناثرة في وادى عسل ، حتى سارع البعض بطبخ ما وصل إليهم من طعام ، وأكلوه دفعة واحدة حتى لا يفسد في أثناء النقل وبالذات اللحوم . وسد ديونه للرعاة كل من عليه دين ، وأرسل بعضهم حساب محمود لواس التاجر بالقصير ، أو أرسل له خطاباً يصبره فيه ويطمئنه أنه لن ينساه عندما يقبض المتأخر له من بدل الصحراء . وذهبت السيارة التى تنقل معها تموين الرجال الموجودين في المعسكرات التابعة بوادى العطشان والكرم . . برسالة من رئيس البعثة بالنيابة . . الجيولوجى حسن عساف بأن يستعدوا للرحيل ، ولكى يبلغهم أن الغد الجمعة ليس راحة . . ولن يذهب أحد منهم إلى القصير ، وعليهم أن يستغلوا يوم الراحة في خلع الخيام « وترتيب » المعدات ، على أن يكون الرحيل فجر السبت .

وتوسط أهل الخير طالبين من الرجل الطيب أن يمهلهم يوماً ليطبخوا فيه طعامهم ، وأن يسمح لهم بالذهاب إلى القصير في ترفيههم الأسبوعى المعتاد لكى يصلوا الجمعة في الجامع . . ويسددوا بعض ديونهم ، فأذن لهم ، وحدد للرحيل موعداً آخر هو فجر الأحد بدلاً من فجر السبت ، وإن له في هذا نظرة حكيمة ، وهى أن يجعل مساء السبت يوم التجمع في المعسكر الرئيسى بوادى عسل ، حتى يخرج الجميع في قُول كبير إلى المنطقة الجديدة بجبل أم نقاط .

قال عساف :

— أريد النظام والسرعة أيها الرجال في خلع المعسكر ، وأهم شئ الخرائط

عليكم بحفظها في صناديق مغلقة توضع في سيارة لا يشاركها فيها « خزانات » الماء أو الوقود ، وأما أصول الخرائط فإنها سوف تبقى في سيارتي فهي إنتاج البعثة كلها خلال السنوات الماضية . وإذا ما انتهيت من خلع الخيام وفك الأكشاك وتحميل السيارات بالمعدات ، عليكم أيها السائقون باتباع النظام . سيارتي ستكون الأولى . . تتلوها سيارة الجيولوجيين ثم باقي العربات الجيب ثم سيارات النقل الثقيلة . وعلى كل سائق أن يعرف من معه من رجال وما معه من معدات . وممنوع عليه تجاوز السيارة التي أمامه أو ينحرف عنها ليسلك مدقاً أو طريقاً آخر على أمل أن يلتقي بالقول بعد فترة معينة فقد يفضل الطريق ، كذلك عليه أن يراقب السيارة التي خلفه طول الرحلة . فإن مشيت سيارتي مشيت جميعاً وإن توقفت توقفت جميعاً .

* * *

ولم يكن خبر الرحيل شديداً على الرجال وحدهم ، فقد كانت وطأته أكثر على الحيوان . وكان أكثر الأجناس ذُعراً . . جاعة الكلاب . . كان سلوكها يدل على أن القلق على المصير والمستقبل اشتدت وطأته . . فقد ولدت وترعرعت في معسكر البعثة ولا تعرف لها مكاناً آخر ، وبين يوم وليلة وجدت الخيام ، تقلع من أوتادها وتحمل فوق السيارات الضخمة . وأما الأكشاك فكان لإزالتها وقع أشد على هذه الكلاب ، فقد عهدتها ثابتة في أماكنها منذ أن رأت النور لأنها كانت تصمد أمام الدوامات الهوائية أكثر من الخيام . وبعد أن زالت ملامح المعسكر وبدأ الناس في التحميل ذعرت معظم الكلاب عندما رأت المحسوبة واضحة ، فالكلاب أيضاً منازل ودرجات ، وتتوقف منزلة كل كلب على منزلة صاحبه ومركزه الاجتماعي بالبعثة ، ويستمد الكلب وضعه بين الكلاب من شخصية صاحبه بين الرجال ، فهذا كلب الرئيس عبد الشكور له مكان في السيارة ، وكلاب السائقين لكل منها مكان محفوظ ، وكذا كل كلب

يكون من محاسب أحد أعيان وادى العطشان . ولا شك أيضاً أن كلب الرئيس هو بالتالى رئيس الكلاب .

وقبل غروب شمس يوم السبت تحركت السيارات من المعسكرات التابعة للبعثة . . الموجودة فى وادى العطشان ووادى الكرم لتتجمع كلها فى معسكر رئاسة البعثة بوادى عسل . وذعرت الكلاب التى ليس لها واسطة تؤهلها لركوب السيارات . لكنها لم تفقد الأمل فقطعت الطريق جرياً وراءها ووصلت إلى المعسكر الرئيسى فى الهزيع الأخير من الليل قبل رحيل القوم الكبير . وقد ظنت تلك الكلاب المسكينة أنها حققت أميتها عندما وصلت سالمه ، وأن المعسكر الرئيسى هو غاية الرحلة ، ولم تعرف أن الرحلة الكبيرة لم تبدأ بعد . ولكن لم يلبث القلق أن ساورها من جديد عندما لاحظت الاستعدادات للرحيل الكبير .

التفت الكلاب . . وكلها أقارب . . حول زعيمها وولى نعمتها وسبب وجودها فى تلك الأماكن عبد الرحمن الذهبى ، الذى جاء بجدها وجدتها منذ سنوات إلى تلك البقاع . . ، كأنما تسأله عن مصيرها هنا بعد الرحيل . وعبد الرحمن يشفق عليها كل الإشفاق ولكن ما باليد حيلة ، فهو لا يستطيع أن ينقلها كلها إلى المكان الجديد ، وقد اختار منها ذكراً وأنثى سينشئ بهما قبيلة جديدة من الكلاب ، كما فعل نوح عليه السلام .

وماكاد الركب يتحرك فى الفجر حتى نبحت الكلاب التى جاءت من المعسكرات التابعة والتى سافرت طول الليل . . نباح الاحتجاج ، لأنها مجهدة ولا تستطيع مواصلة الجرى وراء العربات ، وقد أدرك بعضها اليأس حينما شعرت بأن هناك رحيلاً أكبر فلم تستطع القيام من أماكنها للحاق بالركب ، فتركت نفسها لمصيرها المجهول .

ومع تحرك القوم ، جرت جماعة كبيرة من الكلاب خلف السيارات فى منظر

مهيّب . شباب الكلاب . . ذوات الصحة والفحولة في المقدمة ، والحوامل وكبار السن والجراء كانت في المؤخرة . وقد واصلت الجرى منذ الفجر حتى اشتدت حرارة الشمس في الثامنة صباحاً ، وأدرك اليأس بعضها في أثناء الطريق ، فرقدت يائسة لا حول لها ولا قوة ، وتسليح البعض الآخر بالأمل لأن الركب لم يكن يمشي بسرعة كبيرة بسبب الغرز والمطبات بالإضافة إلى الأثقال .

وربما كان كل كلب يحدث نفسه وهو في ذروة الإجهاد ، عن غدر الإنسان ووفاء الكلاب ، فهو منذ نشأته في وادي عسل كان يعرس خيمة صاحبه في أثناء غيابه ، وكثيراً ما هجم الثعبان على صاحبه هذا وهو راقد على الأرض لا يدري من أمر نفسه شيئاً ، فتصدى له وعرض نفسه للهلاك وقتل الثعبان دفاعاً عنه وهو يغط في نومه من الإرهاق . . ولم يستيقظ على الرغم من شراسة الحركة التي كانت تدور على بعد قفزة واحدة منه . وكلما ارتفعت الشمس في أفق الصحراء تناقص عدد الكلاب ، إلى أن أصبح قرصها متوهجاً في كبد السماء ، وبقي كلب واحد في ريعان شبابه . . قوى العزيمة . . شديد البأس ، له من اللياقة والصحة ما مكنه من مواصلة الجرى . ولكن العزيمة لها حدود لا يستطيع الإنسان أو الحيوان تجاوزها على كل حال ، فقد أدركه اليأس أخيراً وأنهكه الإجهاد ، فرقد في بطن الوادي مستسلماً ينظر إلى الركب وهو يختفي في أفق الصحراء . . لا يطيعه بدنه لتحقيق حلمه في النجاة وأمله في الحياة . ومن حسن حظ الكلب أن أصيبت إحدى السيارات بعطل طارئ ، فقام من رقدة اليأس واستأنف الجرى إلى أن وصل إليهم . فقفز فوق ظهر السيارة ورفض بعشم أن ينزل منها وأخذ يستعطف الرجال بكل ما أوتي من مواهب التلق التي ميزها الخالق جنس الكلاب . . بذيله وفه ويديه ودموعه ، حتى رق له رجل من أولى الأمر فوافق على بقائه معهم . وهكذا فإن البقاء للأصلح حتى في عالم الكلاب .

في جبل أم نقاط

وصلنا إلى جبل أم نقاط في المزيغ الثاني من الليل ، وبدأ الرجال في « تعتيق » الحنيام من فوق سيارات النقل ، والأدوات الضرورية الخفيفة اللازمة لقضاء الليل مثل البطاطين وبعض الأطعمة المحفوظة من سيارات الجيب . وتركنا المعدات الأخرى في سيارات النقل حتى الصباح .

ونشط الطبّاخون لإعداد طعام سريع به نسبة كبيرة من الرمال . ولم يكن في الليلة الأولى استقرار ، فمن وجد له مكاناً في « كابينة » إحدى السيارات فهو حسن الحظ ، ومن عثر على غطاء فقد فضل النوم على ظهر سيارة . ومنهم من نصب خيمة مؤقتة بالاشتراك مع أقاربه أو بلدياته وناموا فيها على الأرض حتى الصباح . ومع الخيوط الأولى من النهار هبّ الناس إلى إنشاء المعسكر . وكما هو المعتاد فإن الخطوة الأولى هي تطهير الوادي من شجيرات الشوك ، سواء بحلها أو إشعال النار

فيها ، فهبت الحشرات المحتمية بها من رقدتها ولحق الرجال ببعض العقارب والثعابين فقتلوا ، وهرب أكثرها بعيداً . وكان الممرض في أثناء عملية التطهير يقطاً ومعه الحقن مجهزة ، استعداداً لغوثِ أى مصاب . ولم تقع غير حوادث طفيفة ، عبارة عن لدغ العقارب ، وهى بسيطة إذا قورنت بـ « الطريشة » التى لم تصب أى أحد بسوء .

ولما جاء الأصيل كان المعسكر قد اتخذ نظامه المعتاد ، واستقر الجميع في خيامهم آمنين .

وفي صباح اليوم التالى كان أماننا مشكلة اختيار ، فقد كان نفس اليوم الذى سيصل في مسائه رئيس البعثة ومعه الخبراء اليوغسلاف إلى قنا ، وعلى السيارات أن تذهب لإحضارهم . وفي نفس الوقت لم يكن هناك ماء في المعسكر ، ولم يكن من الممكن أن تؤدى السيارات المهمتين في يوم واحد .

وأعلن واحد منا أن له معرفة وثيقة بمدير منجم أم غيج . فقد كان زميلاً له في كلية العلوم جامعة الإسكندرية ، وهذا المنجم هو أحد المناجم الموجودة على ساحل البحر الأحمر ، ينتج الزنك والرصاص ، ولايبعد عنا إلا ساعات قليلة بالسيارة ، واقترح أن يذهب إليه ويقترض منه كمية من الماء ، وبذلك تستطيع السيارات أن تكون في قنا وقت وصول الضيوف

وفي منتصف الليل رأينا أضواء السيارات تضيء قمم الجبال البعيدة ثم سمعنا أصواتها قادمة نحو المعسكر .

وعرفنا منزلة كل من القادمين قبل التعارف ، من نوع السيارة التى يستقلها وموضعه فيها . نزل من السيارة الأولى الدكتور حسين عبد المحسن رئيس البعثة المصرى ، ومعه رجل أوربى أحمر الوجه نحيف الجسم كث الشارب ، عرفنا بالطبع أنه كبير اليوغسلاف . ومن السيارة الثانية نزل أوربى آخران عرفنا أنها

جيولوجيان . ومن « اللورى » نزل شابان لاشك أنها مساعدان للجيولوجيين .
وبدأ الدكتور حسين يعرفنا بأسماء ضيوفنا اليوغسلاف ، ودخلنا خيمة الميس ،
ودار الحديث باللغة الإنجليزية . وكان رئيس البعثة المصرى ورئيس اليوغسلاف هما
نجمى الجلسة ، فقد كان مراسها فى اللغة يسهل لها تناول كل الأمور ببساطة وبدون
جهد .

وقال الدكتور ديمترى ديمترتش كبير الأجانب أنه كان سعيداً طوال رحلته عبر
الصحراء الشرقية من قنا إلى ساحل البحر الأحمر . لما وجده من تراكيب
جيولوجية رائعة . وقال إن الصحراء المصرية مدرسة نموذجية لعلم الجيولوجيا
لا تتوفر فى شبه جزيرة البلقان أو فى أى مكان آخر من أوروبا ، ويرجع ذلك إلى أن
جبالها مكشوفة وليست مغطاة بالغابات كما هى الحال فى بلادهم . وقال إنهم سوف
يشتركون معنا فى العمل لمدة شهر واحد فقط لكى يستفيدوا من الوسائل التى تتبعها
فى التنقيب عن المعادن فى الصحراء التى نشرت فى المؤتمرات العلمية ، وأنهم
قد وجهوا إلينا الدعوة لزيارة بلادهم لكى نرى نحن أيضاً على الطبيعة طريقة
التنقيب فى الغابات . وبذلك يكون كل فرد من الجماعتين مُلمّاً بطرق التنقيب فى
الصحراء والغابة .

كنا نفهم كل ما يدور بالإنجليزية ولساننا لا يساعدنا على النطق . ولكن عقدة
لساننا حلت ، عندما وجدنا أن زملاءنا اليوغسلاف يتبينون الكلام بالإنجليزية
مثلاً ، وأن جهلهم بها أكثر منا . ويسألوننا فى معانى كلمات بسيطة ، فازدادت ثقتنا
بأنفسنا وأصبحنا بعد فترة وجيزة نتكلم الإنجليزية . ونعامل بها بلا خشية أو خجل من
الأخطاء .

وكانت الليلة التالية هى ليلة رأس عام ١٩٦٣ . وأقيمت بتلك المناسبة ولحمة
كبيرة تحمّل الجانب المصرى فيها ثمن الطعام وأما الجانب اليوغسلافى فكان

عليه الشراب ، لأن معظم الاعضاء المصريين أفادوا بأنهم لا يشربون الخمر .
وقد أشرف إبراهيم القصاص على الحفل ، فأمر بخيمتين كبيرتين فنصبتهما بطريقة متصلة وصفت بداخلها الموائد ونظمت المقاعد بحيث يختلط اليوغسلاف تماماً بالمصريين حتى تنمو الصداقة وتزول الكلفة ، وعجيب أن كلاً منا دخل خيمة الحفل - وبدون أى اتفاق فيما بيننا - أنيقاً حليق الدقن ، يلبس زى السهرة كاملاً ورباطاً للعنق ، كأنما نحن مدعوون إلى حفل في مكان رسمي عظيم ، وليس في خيمة على سفح جبل أم نقاط وقال كلٌ منا لزميله لقد فعلت هذا لأن الليلة فرصة لكي أشعر بالمدنية وأنسى شظف العيش في الصحراء .

وقام رجل من اليوغوسلاف فأعلن أنه لن يكون لتلك الليلة جمال حقيقي إلا بوجود المرأة ، ونزع ورقة بيضاء كانت ملصقة على المنضدة في الجانب الأيمن منه فإذا صورة لامرأة بارعة الجمال ، قال إنها زوجته ، فهو لا يستطيع أن يقضى ليلة رأس السنة إلا معها . وطلب من كل منا أن ينزع الورقة التي بجواره ليلتقي بصديقة أعدها له .

وبدأ البرنامج فكان به من الألعاب والدعابات ما أسعد الجميع . وامتد اللهو والسمرحى ساعة متأخرة من الليل . وفي نهاية الحفل كانت آخر فقرة في البرنامج عبارة عن سؤال موجه إلى كل فرد من الحفلة :

- ماهو الأمل الذى تتمنى أن يحققه لك العام الجديد ؟

والتقى الجميع على أمل واحد ، أن تزداد صداقة البلدين ، وأن ينمو التعاون العلمى والتكنولوجى بين دول عدم الانحياز ، وأن ينجح الجيولوجيون المصريون خلال العام الجديد فى اكتشاف مواقع مهمة لليورانيوم فى صحراء مصر الشرقية .

سائق الوزير

ذات يوم . . جاء سائق جديد إلى معسكرنا في وادى الدباح . . وهو أحد أودية الصحراء الشرقية الذى حططنا فيه ، واستقر بنا المقام فيه لمدة عام أو يزيد . كان هذا السائق مؤدباً خفيض الصوت . . طيب الطباع ، لديه أسلوب مهذب ارتاح إليه الرجال الذين قست عليهم الصحراء . . فأكسبت طباعهم الخشونة والجفاف .

وقد احتل الرجل منزلة طيبة بين القوم ، بما كان يقصه عليهم من حكايات جميلة تخلب لب سكان الجبال . كان بمثابة رسول « الأبهة » إليهم . يكفى أنه شاهد الوزير بنفسه ، وأن الوزير يعرفه معرفة شخصية ويناديه باسمه ، وأن أهل بيت الوزير يعرفونه أيضاً وهو يعرفهم . . معرفة وثيقة .

وتساءل البعض أسئلة بسيطة ، لكنها رفعت من شأن الرجل ومكانته ، منها

على سبيل المثال :

— وهل الوزير يعرف رئيس البعثة ؟

واستبعدوا جميعاً هذا الخاطر .

كانوا ينظرون إلى سائق الوزير باحترام كأنه رجالة جاء من مملكة أسطورية في عالم بعيد . . كل ما فيها فخم وعظيم .

إن سائق الأكابر له دلال عليهم وحظوة بينهم أكثر من كبار الموظفين . إليكم مثالا مع الفارق لكنه يوضح منزلة هذا الرجل في الحكومة :

— هل يقدر أحد منكم أن يمزج مع رئيس البعثة حتى لو كان من المعيدين أو المهندسين ؟ . إن سائقه يستطيع . . فقد ضاعت الكلفة بينها على الطرق الطويلة . . في السفر البعيد .

وإزاء يوم فقد سائق الوزير هيئته في وادي الدباح ، عندما تعرضت خبرته لأول مواجهة حقيقية مع الصحراء .

فقد كانت كفاءة الرجل كسائق للوزير تتمثل في طباعه المهذبة بالإضافة إلى أنه سائق جيد على كل حال في الطرق المرصوفة .

لكن قيادة السيارات في الصحراء تحتاج إلى تدريب من نوع خاص ، وبالذات خلال رحلات الاستكشاف ، حيث تضطر السيارة إلى أن تمشي في مناطق متباعدة مجهولة لم تسبقها إليها من قبل سيارة أخرى . ومطلوب من السائق في تلك الرحلات أن يلبي أوامر الجيولوجي بصعود التلال والجبال ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وألا يتملكه الخوف إن طلب منه أن يهبط بسيارته من على جرفٍ عظيم ، أو أن يصعد في طريق ضيق يكاد أن يفريق إطارات السيارة . . على كل من جانبيه هوة سحيقة قاتلة .

كذلك مطلوب من سائق الاستكشاف أن يكون « ميكانيكي » من الطراز

الأول ، يستطيع أن يعود بسيارته بأى وسيلة يتدعها إلى المعسكر الأصلي إذا انتابها أى عطل فى الجبال .

ولقد بقى سائق الوزير فى معسكر وادى الدباح مدة شهر كامل لم يمر خلاله بامتحان صعب يبين مهارته أو جرأته كسائق بمفهوم الصحراء ، فقد كان خلال ذلك الشهر مكلفاً بتوصيل « وردية » ثابتة المواعيد إلى موقع بعثة « الحفر » فى وادى العطشان ، والطريق إليه شبه ممهد . كما أنه أصبح مأهولاً ومعلوماً لدى الجميع .

* * *

كان على أن أخرج ذات يوم فى إحدى رحلات الاستكشاف إلى منطقة اسمها « وادى أبو جرادى » فى الجنوب ، ترتفع أرضيتها عن مستوى وادى الدباح بحوالى ثمانين ومائة متراً ولذلك فإن الطريق إليها عبارة عن « مطلع » طويل خلال صدع قديم ممتلئ بحطام الصخور .

وطلبت من ملاحظ السيارات أن يجهز سيارة على أن يكون معى رجلان من العمال غير السائق .

ووقع اختيار الملاحظ على سائق الوزير .

* * *

وبعد السحور . أدار السائق سيارته وجلست بجواره ، وقفز فى الصندوق الخلفى « جمعة » العبادى ، ورجل من القليوبية اسمه محمد وشهرته « الفلاح » ، وقد اشتهر بين رجال البعثة بهذا اللقب . ليس لأنه الوحيد الذى كان يشغل بالزراعة قبل التحاقه بالبعثة ، ولكن هكذا كان يلقبه زملاؤه الصعايدة ، لأنه فلاح من الوجه البحرى .

ولما انتهت السيارة من وادى الدباح كانت قد بدلت جهداً كبيراً فسادت حالها وسخن المحرك .

تركنا الوادى الرئيسى ودخلنا فى معبر صعب يحيط به جبالان ، وتوجد به كتل ضخمة من الصخور يصل حجمها إلى حجم الكوخ أو يزيد ، بعضها بارز على الأرض والبعض الآخر مدفون فى الرمال بدرجات متفاوتة ، كنا نجرى بينها وأحياناً فوقها أو تحتها . . أو نمرق من بينها ، وكانت جذوع من الأشجار المخلوعة . . رمت بها السيول ، تعترض السيارة بين الحين والآخر . كذلك فقد كان هذا المعبر ملتوياً كالثعبان وفيه من الانخفاضات والارتفاعات المفاجئة ما أفقد السائق أعصابه . . والسيارة اترأها . . فسقطت فجأة من فوق جلمود ضخمة وغرست مقدمتها فى تراب أحمر سميك . وأصبحت عجلاتها الخلفية معلقة . . تدور فى الفراغ . نزلنا من السيارة وبدلنا كل جهد حتى عادت إلى وضعها الطبيعي . وأبدت رغبتي فى الصعود إلى قمة الجبل المتاخم ومعى الرجلان فأبدى السائق رغبته فى الكشف على المحرك إلى أن نعود . ولما عدنا إليه وجدناه جالساً على الأرض فى ظل سيارته واجماً . . يضع يده تحت خده ، والسبب أنه أراد أن يصلح السيارة فأفسدها تماماً وأخلف تقسيمة الكهرباء .

أصبح لا يوجد أماننا أى حل إلا « المشى »
قررت أن يبق السائق بمحور السيارة ، ونمشى نحن إلى المعسكر الرئيسى بوادى الدباح فنحضر نجدة لسيارته المعطلة .

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة صباحاً بقليل ، واشتدت حرارة الشمس حتى أخذ العرق يتصبب من وجوهنا قبل أن نبدأ مسيرتنا . قلنا إننا لا نريد ماء كثيراً لأننا صائمون . وإننى سوف أقودهم بين الجبال مهتدياً بالبوصلة والخريطة فى طريق مباشر لا تستطيع أن تمشى فيه السيارات . صحيح أننا سوف نتسلق خلال مسيرتنا بعض الجبال ولكنه على كل حال طريق أقصر بكثير من طريق السيارات .

ودخلنا في خور ضيق طويل به غرز شديد . كانت أقدامنا تغوص فيه حتى الركبة ونخلعها بصعوبة وجهد في كل خطوة . وجاء وقت الظهر فاستبد بنا العطش ولكننا حافظنا على صيامنا وتيممنا ثم صلينا . كان معنا زمزمة صغيرة واحدة مصنوعة من المشمع أخذناها على سبيل الاحتياط وكان الماء يتبخر منها فيفقدها الجزء الكبير ، وقدرنا أنه إذا جاء علينا المغرب ونحن في الطريق فلن نجد فيها ما نشرب ، لذلك فقد أخفأها واحد من الرجلين تحت جلبابه ليقيها أشعة الشمس المحرقة .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر كنا أمام جبل عظيم علينا أن نتسلقه ونهبط منه إلى الاتجاه الآخر . وكما ظننا أننا اقتربنا من القمة وجدنا بعدها ثابتاً كأننا نمشي بلا حركة .

ووصلنا إلى جزء من الجبل هو أصعب مرحلة في الرحلة . فقد كان هذا الجزء مكوناً من « الركام » . . وهو عبارة عن حطام وفتات من الصخور المفككة ، ولكننا تسلقنا بعزيمة ومثابرة وما إن وصلنا إلى منتصف الجبل حتى ماتت بنا الأرض . وهوى الركام من تحتنا . أخذنا نقاومه بإصرار . . أقدامنا تتساقط بسرعة في حين يجلبنا الركام نحو السفح . كررنا المحاولة مراراً ، نسوق أقدامنا بإصرار نحو القمة فنجد أنفسنا مسلوون الإرادة تماماً متجهين بظهورنا إلى أسفل .

بلغ منا التعب مداه ، وأصبحت أقدامنا ترفض المحاولة . ولكن لم يكن أمامنا أى حيلة إلا تجاوز منطقة الركام .

قررنا أن نستريح ثم نحاول من جديد . فخلع الرجلان جلبابهما وعملنا منها مظلة واستلقينا تحتها على ظهورنا .

قال لي محمد الفلاح :

— أريد أن أفضي إليك بسرّاً أستاذ ، وإنك أول من أبوح له به .

قلت :

- قل ما بدا لك يا محمد

- هل تعرف الدكتور (.) ؟

- نعم . . وإن مركزه كبير .

- هو من أهل قريتي وقريبي من بعيد ، وسوف يتوسط لى عند المسئولين أن
أنقل من هذه الصحراء وأعود للعمل بالهيئة . ولم أتكلم . فسألني قائلاً :
- لماذا لا تبحث لك عن عمل آخر ؟ .

ولم أجد جواباً أستطيع أن أقنعه به في ذلك الوقت الذى وصلنا فيه إلى غاية
التعب والعطش ، ربما لأنني من حيث لا أدري كنت أسأل نفسي السؤال ذاته .
ولكن الفلاح عاود الكلام :

- إني رجل أمي* ، وأتكلم على قدر ما أفهم . ماذا تصنعون في هذه البقاع ؟
ولماذا تقضي شبابك بين الجبال ؟ . ألا تعرف رجلاً كبيراً يتوسط لك لنقل إلى
القاهرة ؟ . إني يا أستاذ شخص ضعيف ولكنني مستعد أن أكلم لك قريبي الدكتور
ليساعدك .

وقلت إن هذه مهنتي التي لا أعرف سواها ، وإني هنا باختيارى وماتعلمت في
الجامعة إلا لكي أعمل في تلك البقاع .

لكن الفلاح لم يقتنع وقال :

- أليست مهنة التاجر خيراً من مهنتكم هذه ؟ . لماذا لا تفتح « دكان
مانيفاتورة » في بلدك وتجلس فيه ؟ . لا تؤاخذني يا أستاذ فأنا أعرف راتبك
الشهرى . إن تاجر القماش في قريتنا يكسب أضعاف راتبك ، كما أن مركزه في البلد
كبير ، لا يقل أبداً عن مركزك في تلك البعثة ، إن لم يكن يزيد .
ولم أستطع وقتها أن أقنع الفلاح .

فما لناوصل تسلق الجبل ، وبعد كفاح طويل وتكرار المحاولة متعاونين وصلنا إلى القمة وبدأنا فى الهبوط إلى الجانب الآخر .
وهبوط الجبال الوعرة أصعب بكثير وأخطر من تسلقها . وأعترف أن منطق الفلاح قوى فى نفسى عدة مرات خلال الهبوط ، وأن سؤاله أخذ يتردد فى أذنى مع كل سقطه أو جرح أصاب به على أثر تشبى بصخرة واهية . . أو وقوفى على أرضية معلقة . .

— أليست تجارة القماش خيراً من مهنة الجيولوجيا ؟ !
ولا أدرى . . كيف حدث ذلك بهذه السرعة الخاطفة . .
بمجرد أن اختفى قرص الشمس الأحمر وراء الأفق هجم واحد منا على الزمزمة واختطفها منه الاثنان الباقيان بسرعة وهمجية نسينا فيها الحواجز المكتسبة والتحفظ ، ونسينا لحظتها آداب الصيام . ومع هذا وجدناها فارغة تقريباً فقد تبخر الماء كله ، ولم نزدنا الآثار المتبقية التى بللنا بها شفاهنا إلا عطشاً .
وصلنا إلى معسكر البعثة بعد العشاء ونبحث الكلاب ونحن نهبط جبل الدباح وهو آخر جبل تسلقناه ، فهرع إلينا الناس لأنهم عرفوا ما حدث بمجرد سماعهم نباحها .

ووجدت نفسى أتوجه بلا وعى إلى خيمتى . لم أشعر بجوع أو تعب ، كل ماكنت أشعر به . . عطش ميم طغى على أى شعور آخر . وكان بداخل الخيمة « باستيلة » من الماء الممتلئ بالديدان الصغيرة ، جثنا به من بئر عطنة فى الصحراء بغرض الاغتسال لكى نوفر الماء النقى الذى نحضره من مكثف القصير أو من نهر النيل . لم أصبر حتى أصل إلى مكان الماء النظيف بل وجدت نفسى بدون تحكم أعب من الماء العطين . . وكلما شربت ازدادت عطشاً . ونمت فى غيبوبة أسلمتنى إلى المرض .

وتعلمت من هذه التجربة أنه إذا ازداد العطش بالرجل في الصحراء فإنه قد يصل إلى درجة يطلقون عليها « درجة الاحتراق » إذا تجاوزها يكون شرب الماء أخطر عليه من العطش ، فقد يمرض مرضاً شديداً إذا شرب بطريقة مفاجئة وبكمية كبيرة ، وربما يموت من الشرب بدلا من أن يموت من العطش . ومن الحكمة أن يُعطى قليلا جداً من الماء . . وتزداد الكمية على فترات ، ويمنع عن تناوله بنفسه حتى ولو بالقوة . وقال لى بعد ذلك رجال من أصحاب الخبرة إنه في هذه المرحلة تكون أحشاؤه محترقة ، وسألني أحدهم ليقرب لى المعنى .

ماذا يحدث لو أن سيارة ما . . سخنت إلى درجة الاحتراق ثم صب عليها الماء البارد فجأة . . ألا يتصدع محركها ؟
وعلمت بعد ذلك أن الرجال تركونا نائمين واقتفوا أثر سيارتنا إلى أن وصلوا إلى سائق الوزير وسحبوا سيارته إلى المعسكر .

وقد تعرض السائق للنقد اللاذع والسخرية وازدادت مع الأيام . وأصبحت قصته تسلية لهم جميعاً . . في فراغ الصحراء . وحاولت أن أوضح لهم الظروف الصعبة التي مررنا بها في الطريق ، وأن الرجل قد أخلف تقسيمة الكهرباء بحسن نية ، ولكن هذا لم يزد هم إلا هجوماً عليه وازدراء له . ولم يشفع له حسن خلقه أو حسن نيته ، لأن الصحراء القاسية لها منطق لا يحترم إلا القوة . . ومن أهم مقومات القوة « الكفاءة » . وكما أن القانون في المجتمع المتحضر لا يرحم من يجهله ، فإن قانون الصحراء . . لا يحترم إلا الأكفاء .

وظلّ الناس يهاجمون الرجل الطيب . . إلى أن ترك لهم وادى الدباح . . وعاد إلى القاهرة ، ليقود من جديد . . سيارة الوزير .

الحكيم والذئب

الذئب شخصية محترمة . . فيه من الشجاعة ومن صفات الرجولة ما يجعلك تحترمه مهما كان عناده ساعة المعركة . والإنسان في عراكه مع الذئب ليس من الضروري أن يكون في جانب الحق دائماً . قد يكون الإنسان ذئباً أكثر من الذئب ذاته .

حدثت المعركة بين رجال في جانب الباطل . . وذئب عظيم في جانب الشرف والدفاع عن نفسه وعن زوجه وبيته . بدون سبب هاجمه الإنسان . فوجيء به ركاب العربية « اللاندروفر » أمامهم ومعه زوجه الذئبة . . ينتزهان في هدوء وسلام . .

المنطقة فسيحة جداً . . من سوء حظ الزوجين . والسيارة « اللاندروفر » أكثر العربات كفاءة في الصحراء ، ويقال إنها صممت خصيصاً للصحراء المصرية ،

و « الحكيم » سائقها . . معتر بمهارته ، وهو من أكفأ السائقين في عمليات الاستكشاف والاستطلاع ، إذا طلبت منه أن يصعد فوق الجبل بالعربة لصعد . . وإن طلبت أن يهبط بها كالمطائرة من فوق حافة قاتلة شبط بها ، فهاذا تظن أنه فاعل بلذب وذئبة . وجدها أمامه ؟

استأذن الحكيم . . « مصطفى السيد » . الجيولوجي الذى يجلس بجواره فى أن يهاجم الذئبين . . فسمح له . وما إن سمع الإذن حتى اندفعت السيارة بسرعة رهبة فى اتجاهها ، وفرق الحبيان من هول المفاجأة وتفرقت بها السبل . اتخذ الذكر حافة التل الغربى واتخذت الأنثى حافة التل الشرقى . شعر الحكيم بنشوة النصر . . لقد استطاع أن يفرق بين الذئب وزوجه . انحرف الحكيم نحو الغرب وصعد حافة التل بالعربة وجرى فوقه فى أعقاب الذئب ليرده إلى الأرض الفسيحة . . احتكت العربة بمجدار التل فأحدثت دويًا استشاط له كل من الحكيم والذئب غضبًا . . أخذت العربة تقفز من فوق الصخور . الذئب ذكى . . يعرف أن الحكيم يريد أن يبعده عن التل ويخرجه إلى الخلاء . . أخذ يدور حول التل على حافته والعربة من خلفه تقفز بجنون وتتأرجح .

مصطفى . . يأمر الحكيم بالتراجع . . لم يكن يعرف أن المعركة ستكون بتلك الشراسة ، . الحكيم يظن أنه يستهين به وأنه يقول له ما معناه أنك سائق خائب والذئب أمهر منك . يستشيط الحكيم عزمًا ونزقًا يضغط على البنزين إلى أقصاه . . العربة تهتز وتمرق بهمجية بالسرعة القصوى فوق الصخور الوعرة . الذئب يعرف أنها معركة الموت أو الحياة . . ينظر إلى أثنائه التى ترقب المعركة من فوق التل الآخر بإشفاق وهلع . . الذئب يقفز بكل ثقله وضخامته من قمة التل إلى ظهر العربة . « حسين » موجود فى الخلف وليس فى الكابينة . . يشعر بثقل الجسم الذى هبط فوق سقف العربة القماش . . أمن المعقول أنه الذئب ؟ غير معقول . .

ولكن من يكون سواه . الحمد لله . . الذئب لا يريد « حسين » . . بل يعرف
 غريمه . . يتشبث الذئب بكل مخالفه في سقف السيارة القماش ويضع وجهه في وجه
 الحكيم ويهم بالتهامه . . يصطدم وجهه بالزجاج .
 سقط الذئب أوروبم ففز من فوق السيارة ونظر إلى الوادى الفسيح فوجد زوجه
 قد تركت التل الشرقى التى كانت تحتوى به واقتربت من ميدان المعركة لشدة قلقها
 على زوجها البطل . شعر الذئب أن وجودها في هذا السهل المنبسط خطر عليها .
 فاندفع نحوها بسرعة فائقة واندفع الحكيم بسيارته الرعناء ليقطع عليه الطريق إلى
 أنثاه . إنها فرصة الحكيم أن يصصره في الوادى الفسيح . الذئب في منتهى
 الذكاء . . لم يحرم أمامه في خط مستقيم . . إنه يجرى في دائرة كبيرة ، والحكيم يدور
 خلفه على نفس محيط الدائرة . . الذئب مكر فهو يضيق محيط الدائرة . .
 ويضيق . . إلى الحد الذى كادت أن تنقلب السيارة على جنبها . . ولو انقلبت في
 تلك اللحظة لتغير وجه المعركة . . وتغير مصير أسرة آمنة من الذئاب .
 العربة تجرى بالفعل على جانب واحد . « مصطفى » يفيق من نشوة المطاردة
 فيأمر الحكيم بحزم أن يترك ذلك الذئب اللعين . الحكيم يؤثر عليه فشله مع الذئب
 بالإضافة إلى حزم مصطفى معه هذه المرة ، فيستدير إلى الأثنى . حسن جداً ، إن
 كفاءتها أقل بكثير من ذلك الشيطان . يحول المطاردة إليها . . نعم إنها تبشر بالخير .
 الذئبة مضطربة . . لا تجيد التصرف . . لياقتها منخفضة . . يظهر أنها ليست نداً
 مكافئاً للاندروفر . حركاتها ثقيلة . الحكيم يضحك مقهقهاً كالشيطان ، يمزج
 ساخراً منها : إنها تذكرنى بامرأة حامل . . إنها تنهج . . بل إنها تبكى . الذئب
 الذكر يأبى أن يترك ميدان المعركة ويهرب كالجبناء . . بالرغم من أن الفرصة الآن
 مواتية له للهروب . فاجأ السيارة يقفزة هائلة صفع فيها مقدمة السيارة بجراءة ليس
 لها مثيل . . مبدافعاً عن أنثاه . . لكى تتحول المعركة عنها إليه . الحكيم يتحول عن

الذئبة ليطارده . . وهذا ما يريده الذئب بالضبط . ولكن الحكيم . . أخبث من الذئب . . لم يستمر في مطاردته بل استدار فجأة إلى الذئبة فصارعها . وتأوهت الأنثى . .

وبكى الذئب فوق التل وهو يرى المنظر الأليم . . بكاء الرجل المقهور . . الذى فقد كل شيء . . كل شيء . . وانصرف يجرى فى القفار الفسيحة . . يعوى . . كالضال أو الشريد .

* * *

عاد الرجال الأشرار إلى معسكر رئاسة البعثة الجيولوجية ، وأخبروني بالقصة . . وأخذت أتأمل الذئبة المسكينة التى أحضرها معهم . . قبل أن أعاتبهم على جنونهم وسوء استعمالهم للسيارة . الذئبة ضخمة الجسم بشكل كبير . . ووجهها قوى ، وهى عموماً أكبر جسماً وأشد متانة من تلك الذئاب التى نراها فى حدائق الحيوان أو المزارع ، وتبين لى أن الذئبة حامل بالفعل . . وعلى وشك أن تضع صغاراً من الذئاب .

* * *

ذات يوم وأنا فى طريقى إلى وادى التمساح عرجت على مكان المعركة . ووجدت آثار الصراع بين الحكيم والذئب مرسومة فى الوادى الفسيح ، ومعنى هذا أنه لم تحدث عاصفة خلال الأسبوع الماضى فى هذا المكان تطمس الآثار . وتعجبت من الضيق والتغير السريع لحيط الدائرة التى جرد الذئب الحكيم وراءه خلالها . . هادفاً إلى انقلاب السيارة . . وتبينت أن عدم انقلابها كان فى حد ذاته معجزة . وكانت آثار عجلات السيارة خلال المطاردة واضحة . . تتقاطع فى منحنيات شديدة . وعلى أساس القاعدة المعروفة فى فن اقتفاء الأثر التى تقول بأن القاطع أحدث من المقطوع . . أخذت أقرأ قصة المعركة على أرض الوادى الفسيح .

ورأيت الموضع الذى صرعت فيه الذئبة . . ولم يزل موضع جسمها واضحاً كالقالب فى بطن الوادى . واستتجت من اقتفاء الأثر أن الحكيم مر عليها عدة مرات حتى يتأكد من موتها تماماً ، قبل أن ينزل ليرفعها إلى سيارته . ووجدت عن قرب ، بيت الذئاب الذى خربة الحكيم . وهو عبارة عن كهف مظلم طويل . ودخلت فى الكهف إلى نهايته . . فوجدت مجموعة من العظام أخرجناها كلها إلى خارج الكهف . . وأخذ الرجال يسلون أنفسهم بتركيب بعضها على بعض لكى يعرفوا نوع الضحايا التى افترستها الذئاب . . إلى أن يفرغ عبد العال من عمل الشأى . وقد ألفوا هياكل عظمية كاملة أغلبها كانت للغزال ، ومن بينها هيكل لجمل كبير افترسه الذئب .

وأخذنا نشرب الشأى ونحن نتحدث تحت شمس الخريف الدافئة . . على حين ينظر بعض الرجال إلى هياكل الضحايا التى افترستها الذئاب . . ويترحمون على تلك الضحايا . وغيرهم يتكلمون عن شجاعة الذئب المقهور واستبسالة . . ويترحمون على الذئبة . . ضحية الحكيم .

* * *

سيول . . فى وادى الدباح

كان ذلك فى يوم من أيام فصل الشتاء . .
 معسكر صغير يقبع فى سكون . . على سفح أحد الجبال ، وخيام بيضاء تنتشر
 على أرضية من صخور الاردواز ، وكأنها طيور صغيرة تحط على تربة زراعية
 سوداء . وتلال بنفسجية اللون تحيط بالمعسكر . كأنها سياج من الورد حول زهرة
 بيضاء . وقوس قزح بألوانه الزاهية يرتفع فى الأفق . كأنه مارد يحرس هذا
 المعسكر . أو وصى على تلك الجبال ، وبدا المعسكر فى ذلك الوقت كأنه خال من
 السكان ، أو كأنه مهجور أو مسحور ، فقد هبت مع الأصيل نسائم باردة . .
 جعلت الرجال يأوون إلى خيامهم . . ويجلسون حول وابور الشاى فى حلقة
 للسمر . . والراحة من عناء يوم ساخن فى الجبال .
 وقافلة صغيرة . . تسير فى وادى الدباح مكونة من أربعة جمال وثلاثة حمير . .

وبعض الماعز والكلاب ، وبها ثلاث نساء وعدد من الأولاد ، يقودها رجل واحد جاوز التسعين من عمره جاف العود . . ولكنه ممتلئ بالحياة والنشاط . . هى أسرة عادية من أسر العباددة ألف « الغرباء » أن يشاهدوا مثيلاتها تمر بهم فى أثناء الرعى والترحال .

ويظهر أن هذا الشيخ كان على عجلة من أمره فقد كان ينخس الحمير . . ويحث العير على سرعة المسير ويتم بين الفينة والأخرى بدعاء غير مسموع . ويبدو أيضاً أن القافلة كانت تقصد معسكرنا الصغير .

وأوى الرجل وأسرته إلى تل وردى اللون . . قريباً من المعسكر ، وأناخ الجال . . وترك للنساء بقية العمل المعتاد مثل إطعام الخراف وتقديم بعض الماء لها ، وأمرهن أن ينصبن « خيشة » . . لكى يجلسن فيها ريثما يعود ، وأنجه من فوره على ظهر أحد الحمير إلى معسكر البعثة .

* * *

وعندما سمع الرجال وقع حوافر الحمار . . نظر أحدهم من فرجة ضيقة ، ورأى الشيخ فخرج ليستقبله ويسأله عن حاجته التى تكون فى العادة قربة من الماء أو بعض الدواء .

وحياه الشيخ بتحية الإسلام ، وقال إنه لا يريد شيئاً من ذلك ، فدعاه الرجل لشرب قدح من الشاى . . فاعتذر شاكراً ، فعرض عليه أن يدلّه على خيام العباددة من العمال ، فلرما جاء يبلغهم رسائل الأهل والأحباب ، فرد الشيخ قائلاً :
- ما جئت اليوم . . لرؤية أولادنا من العباددة ، ولكن لمقابلة شيخكم . . كبير الغرباء .

فتعجب الرجل وقال للشيخ :

- هل هى شكوى ؟ . . وإن كانت كذلك ، فلماذا لا تشرب الشاى أولاً ،

وتسلم على أهل المعسكر ثم تذهب إلى الرئيس بشكواك كما هي العادة ؟

فأجاب الشيخ :

— إنها ليست شكوى يا بني ، وأرجو ألا تضيق وقتي هباء .

فقاده إلى خيمة المكتب وكانت مغلقة . . وبداخلها الجيولوجي الشاب ينحني واقفاً أمام منضدة كبيرة للرسم . . وقد بسط عليها خريطة يوقع عليها البيانات التي حصل عليها في يومه ، ولا يوجد في الخيمة شيء آخر غير « كلوب » دق في عمود الخيمة . . للتدفئة وتعويض المفقود من ضوء النهار . . بسبب انغلاق الخيمة . وفك الشاب حبال الباب ، ودعاهم للدخول ، وإذا الشيخ يقول مباشرة بعد السلام :

— أيها الرئيس . . لقد رأيت الفأر يحمل صغاره ، وينقلها إلى أعلى الجبل ، واحداً بعد الآخر .

فلم يفهم الجيولوجي الشاب مقصده . . وظن أنه أخطأ فهم المقال ، وأن عدم اعتياده لهجة العبادية . . هو الذي صور له ذلك ، فأهل ما سمع . . وسأل الشيخ أن يجلس ليشرب بعض الشاي ، ولكن الشيخ لم يفعل وأعاد عليه القول : — لا وقت لدينا اليوم للشاي أو الراحة ، وليشملنا الله بعنايته ، أقول لك إنني رأيت الفأر ينقل صغاره إلى أعلى الجبل .

وكان بعض العمال من العبادية قد وصلوا من خيامهم . . إلى خيمة المكتب ، ووقفوا — تأدباً — على بعد خطوات من باب الخيمة ، فقد أذكروا أنَّ هناك أمراً هاماً . . دعا الشيخ إلى أن يتوجه مباشرة إلى رئيس البعثة بدون أن يمر على خيامهم . . ويشرب قهوته . وما إن سمعوا كلام الشيخ حتى دخلوا الخيمة بدون دعوة ، فنظر إليهم الجيولوجي الشاب ليفهم منهم ماذا يقصد الشيخ . فقال له أحدهم :

— والله إننى توقعت أن يكون المطر قد هطل على منطقة المرتفعات . . جنوب وادى الدباح ، ولم يذهب فى الظن إلى أكثر من ذلك .

وعقب عبادى آخر قائلا :

— ولقد رأيت « القزح » فى السماء . . وهو سحاب صغيرة يتطاير فى الجو كأنه خيوط العنكبوت ، فعلمت أنه المطر . . يهطل فى الجنوب ، ولكن أحداً منا أيها الرئيس لا يستطيع أن يخبرنا بهذا الأمر الجلل الذى من أجله جاء الشيخ . . إلا الفار ، وحمداً لله أن رآه يصعد بصغاره إلى قمة الجبل ، قبل فوات الأوان .
وقال الرئيس :

— أريد كلاماً واضحاً أيها الناس .

فرد رجل من العابدة :

— إن الشيخ يقصد أن السَّيْلَ آتٍ لا ريب فيه ، وقد يدمر المعسكر وما فيه .
وقال الشيخ :

— أرى أيها الرئيس — والرأى لك — أن تأمر رجالك بأن يحملوا ما يستطيعون حملة من متاع ، ويخلعوا المعسكر ، ثم يأوون إلى جبل يعصمهم من الماء .
فابتسم الرئيس ، وشكر الشيخ ، ودعاه مرة ثانية إلى شرب الشاي . وكان ذلك علامة على أنه لم يعر الأمر الاهتمام المطلوب .

وانصرف الجيولوجى الشاب إلى خريطته يوقع عليها البيانات ، التى حصل عليها خلال رحلاته بين الجبال ، وكأنما لا يرى فى الحياة ما يستحق الاهتمام .
إلا خريطته هذه التى انقطع لها عن العالم المعمور أكثر من عام .

* * *

ومن صفات العابدة أنهم إذا حذروا من شيء . . فإنهم لا يكرهون التحذير ، ولا يلحون فى طلب الاحتراس منه . لذلك فقد انصرفوا إلى خيامهم ، وهادى الشيخ

إلى أسرته وراء التلال بدون أن يشرب الشاي .

ولقد لاحظت هذه الخصلة فيهم خلال مناسبات شتى أيام معيشتي في تلك البقاع ، لأنهم على الرغم من ثقهم في تأويل ما يشاهدون من ظواهر الطبيعة ، فإن أخلاقهم الطيبة تصونهم من أن يغرمهم بخبرتهم الغرور . وربما يرجع ذلك أيضاً إلى ثقهم في العلم الحديث ، يقولون إنَّ قَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ، وقد يقيم الرئيس بعلمه شر السيول ، خاصة أنه ثبت لديهم في مناسبات شتى أنَّ الغرباء يدركون أشياء كثيرة عن بلاد العبادلة . . تثير الدهشة والعجب ، فهم مثلاً بمسالك البلاد خبراء لدرجة تصل إلى حدِّ الإعجاز ، على الرغم من أن كثيراً منهم لم يسبق لهم المجيء إليها .

ينظر الغريب إلى ورقة في يده اسمها الخريطة ويحرك جهازاً صغيراً اسمه البوصلة ثم يوجه السيارة بثقة إلى أى مكان يشاء ويعود في نهاية اليوم أو بعد أيام من السفر إلى المعسكر من درب آخر غير الذى ذهب به ، بل إنهم لاحظوا أنَّ الغرباء يعرفون جبلاً . . لم يذهب إليها شباب العبادلة من قبل . . إنما يسمعون عنها فقط من آباءهم الأولين . ولقد رأى العبادلة حتى النساء منهم والأطفال كيف أن سيارة الغرباء وهى من عجائب العلم الحديث تقطع في ساعات ما لا يقطع الجمل في أيام . .

وقد بلغت ثقهم بالغرباء غايتها يوم أن هبط عليهم من السماء « طائر الحديد » . نزل في ساعة هؤل لم يسبق لهم أن مروا بمثلها من قبل ، كان أزيزه يهز الأرض وما عليها ، وتُرْدُّ الجبالُ صدهاءً ، فكأنَّ عشرات منه هبطت في نوبة واحدة فوق الجبال . وبعد أن استقر على الأرض كان له هيئة أكثر من طائر الرُّخِّ الذى يسمعون عنه في الأساطير ، تضاءلت أمامه سيارة النقل الكبيرة حتى إنها لم تصل في علوها إلى ارتفاع بوزه الأحمر المخيف . وهبط منه رجل يحنى عينيه خلف

قطعتين من الزجاج الأسود ، ويرفقتة شاب اسمه قدرى فؤاد . . زميل الغرباء ، يقولون إنه أيضاً يبحث عن نفس المعدن الذى عنه يبحثون ولكن من السماء . . ويجهاز مثبت فى بطن ذلك الطائر الجبار ، ولولا أن العباددة شاهدوا « قدرى » مراراً مع الغرباء لظنوا أن الرجلين قد جاءا من كوكب آخر فى مجاهل الفضاء . وبعد أن تناول الرجلان « اللذان هبطا من السماء » طعاماً مع زميلها رئيس الغرباء . . ضحكوا ولعبوا النرد وشربوا القهوة . . ثم ركبا طائرهم الجبار . . وطار بهما مزججراً فوق قمم الجبال ، وأثار وراءه نقعاً صعد إلى عنان السماء .

* * *

وإذا كنت أجد تفسيراً لعدم إلحاح العباددة على رئيس الغرباء ، واحترامهم لقراره سواء أكان بالسلب أم بالإيجاب ، فإننى لا أجد حتى الآن تفسيراً معقولاً لتماحس ذلك الشاب ، ولا أعرف لماذا لم ينقل معسكره فوراً بعد ما سمع من نذير هل هو ما يسميه بعض الجيولوجيين بالاستغراق . . الذى يتجم عن ارتباط الإبداع بالمكان ؟ . وهل وصل ذلك الاستغراق بالشباب إلى أن يفقده الإحساس بالخطر ، وينسى كل شيء عندما يتأمل فى خريطته ما اكتشف بنفسه من تراكيب جيولوجية نادرة . . ربما يكون لها شأن فى تغيير المفهوم العلمى لتلك المنطقة ! ، وإن اسمه - على صغر سنه - سوف يسجل فى الجمعية الجيولوجية المصرية ، وربما فى المؤتمرات الدولية ، وقد يتردد أيضاً فى مدرجات الجامعة فى مادة (جيولوجية مصر) ؟ ، لا أظن أن تلك الآمال تبعده عن واقع ما سمع . . بل ربما تزيد حرصاً على حياته . . وعلى خريطته . فأى تفسير إذن لتصرف الشاب ؟

لعله لا يعرف حقيقة السيل ؟ ، حقاً هو يسمع عنه فى الكتب ومن الناس ، ولكنه لم يجربته . . ولا يعرف أنه يمكن أن يباغته فلا يستطيع لنفسه شيئاً . أو أنه كبر عليه بعدما بلغ من علم أن يقوده فأر صغير ؟ ، وعظم أمامه أن توضع قرارات

الإنسان بناء على تصرفات الجرذان ؟ .

وبعد صلاة العشاء ربط حبال الخيمة من الداخل ليغلق بابها . . ثم قرأ جزءاً من المصحف الشريف كعادته كل ليلة وأوى إلى سريره لينام . . على أمل أن يصحو مبكراً ليستأنف عمله في الجبال ، وقد نسي ما حدث بخصوص الشيخ العبادى وحكاية الفأر .

ولكن كلبه الذى اعتاد أن ينام تحت السرير . . خرج من مضجعه وأخذ يرهف السمع ثم جذب صاحبه بقمه . . واندفع إلى باب الخيمة يعالج الجبال يريد أن يفتحها . . ففشل فى ذلك ، فرجع إليه ينبج نباحاً غريباً . . ولكنه لم يعرف اهتماماً ، وارتفع نباح الكلب وفشل الشاب فى إسكاته ، فقام وفتح له باب الخيمة فاندفع إلى خارجها . . ثم ما لبث أن عاد . . يحملق فى صاحبه ويكرر النباح الغريب . . وضاق به صاحبه فنهزه . . ولكنه لم يرتدع ، وظن الشاب أن الكلب قد ألّم به الجنون ، فنادى على الخفير وطلب منه أن يأخذه بعيداً ولكن الكلب قاوم الخفير وواصل النباح كأنه يحذر من شيء مجهول .

فقال الشاب للخفير :

- لا أريد أن أسمع صوتاً لهذا الكلب المجنون ، أقبض عليه ، وكممه حتى الصباح فترى بعد ذلك ما أصابه ، وإن كان قد أصيب بالسُّعار . . فلا بد من قتله .

ودافع الكلب عن حرّيته بإصرار ولكن الخفير استطاع فى النهاية أن يقبض عليه وأخذه بعيداً فى أقصى المعسكر ، والكلب لا يكفّ عن النباح الغريب .
وأوى الشاب إلى مضجعه ثم أطفأ « الكلوب » ولكنه لم يتمكن من النوم ، فقد بدأت الهواجس تحوم بخياله .
إن الكلب ليس بمجنون أو مسعور بدليل أنه لم يعرض الخفير عندما ضربه .

يقولون إن الله ألهم الحيوانات إدراكاً للكوارث قبل وقوعها ، فهل سمع الكلب صوتاً بعيداً في الوادى . . تعجز أذن الإنسان عن التقاطه . . في حين تلتقط موجاته آذان الكلاب ؟ .

إن نظرات الكلب كان فيها ما يشبه التحذير ، وكانت تنتقل في رجاء بين الشاب واتجاه الجنوب ؟ وهو الاتجاه الذى يتحتم على الماء أن يندفع منه إذا جاء السيل ، بناء على خريطة المناسيب . وأغمض عينيه يريد أن يبعد عن نفسه الظنون ، وعبثاً حاول أن ينام ، ظلّ يحدث نفسه كأنّ في جوفه رجلين لها أريان متناقضان ، أحدهما يسفه فكرة خلع المعسكر ويرى تأجيل ذلك على الأقل حتى الصباح ، والآخر يحذر من التقاعس . . ويحث على سرعة اتخاذ القرار . واحتدم النقاش الصامت وأصبح جدلاً وأخذ الشاب يكلم نفسه بصوت مسموع :

- إن معسكرى في مأمن من خطر ما يسمى بالهيار ، وهو فيضان من الصخور ، تكون معلقة على جوانب الجبال ويعوقها عن الانهيار عائق ضعيف ، فإذا ما خوت السيول من تحتها فإنها تتحرك ، ثم تتزايد سرعتها وقدراتها . . وإذا ما دهمت أى معسكر . . جعلته كعصف مأكول .

ويجيب على نفسه قائلاً :

- ولكن المعسكر يقع في فم وادى الدباح . . والوادى طويل ومستقيم وينحدر نحو المعسكر . . وتغذيه روافد كثيرة على جانبيه ، بالماء . . وفتات الصخور ، وكذلك بالحصى والرمال ، وكلها تكسب الماء في سرعتها قدرة إضافية على التدمير .

- ولو باغثنى السيل سأخطف الخريطة وأجرى نحو الجبل ، إنها أئمن شىء في المعسكر كله . . فهى إنتاج البعثة كلها خلال سنة كاملة .

- والكتب هل هانت عليك ؟ إن منها مراجع أجنبية حصلت عليها بشق

الأنفس ، ومنها ما لا يمكن الحصول عليه مرة أخرى ، وحتى لو أمكن ذلك . . هل يهون عليك ملاحظتك في هواشها ؟ وكتب العقاد وطه حسين ونجيب محفوظ وأنيس منصور ، صحيح أنك تستطيع أن تحصل عليها مرة ثانية عندما تعود . . ولكن النسخ ذاتها لا تهون ، لازمك في السراء والضراء ولم يكن لك من صديق غيرها . . في مجاهل الصحراء ، وربطت الوحدة بين صفحاتها وأفكارك . . برباط متين .

- تَبَّأْ لهذه المواجس . هل أستسلم لها حتى الصباح ؟
وتقلب على الجانب الآخر وأغمض عينيه وقد عزم على النوم . وهنا سمع خشخشة بسيطة خارج الخيمة . . ولكنها كانت كافية لكي يقفز بلا شعور من السرير . إذن فإن أعصابه مرهقة . تُرى هل هو ثعلب صغير أو أرنب مسكين . . شعر بقدوم السيل ، فألممه الله أن يجري أيضاً في اتجاه الشمال ؟ وأخذ في يده الفانوس ، وفك حبال الخيمة ونادى على الخفير .
وبادره الخفير بقوله :

- إني كمت الكلب وقيدته ، ولكنني لم أستطع أن أجبره على السكوت . إنه كلب عنيد لا يكف عن الحركة ومحاولة الإفلات . وقد أثار الكلاب الأخرى بعناده .

فقال الشاب :

- ابعت إلى بالعمال العبايدة فوراً .
وعاد إليه الخفير مهزولاً . . وقد ظهرت علامات الخوف على وجهه وقال :
- لم أجد منهم أحداً ، فقد حملوا متاعهم ورحلوا ، بل إن بعضاً من الصعايدة والبحارة تبعوهم إلى الجبال .
وكان الشاب في تلك اللحظة قد عزم وقرر ، أن يأمر رجاله بأن يحملوا متاعهم

ويخرجوا إلى الجبال المتاخمة . وأخذ يفكر باضطراب ، ماذا يأخذ وماذا يترك . وقطع عليه حبل التفكير صوت ضعيف ، ولكنه شامل مثل الخفيف ، ونظر فرأى في نور اللال الخافت أكواماً من القش وشجيرات الشوك . . تغزو المعسكر . . فعرف أنها مقدمة السيول . فصاح بأعلى صوته على رجاله أن يخرجوا إلى الجبال ، ولكن صوته ضاع في خضم صوت . . يزجر من بعيد ، وإذا بفيضان من الرّيم الأبيض يلمع تحت أشعة القمر . . كأنه البحر يحور على المعسكر والناس نيام ، وإذا بهم يفيقون من سباتهم ويخرجون من الخيام . . كالجرذان تخرج من الجحور ، يصيحون : السيول . . السيول .

وهول الشاب إلى خيمته ، ولكنّ بعضاً من الرجال اعترضوه ، فنهزم بجزم . . ودخل خيمته غصباً وقد حاصرها الماء ، وانتزع خريطته من فوق المنضدة وطواها وجرى بها نحو الجبال .

وقضى الرجال ليلتهم فوق الجبل ساهرين ، يتأملون في نور القمر معسكرهم الصغير وهو ينهار بالتدريج ، شاخصة أبصارهم إلى ما يسبح من حاجاتهم . . وما تعوقه الصخور . وعندما اشتد البرد . . اقتسم كل من الذين هجروا المعسكر مبكرين « البطانية » مع زميل له من الذين ولّوا متأخرين . كان صمت الليل طويلاً . . ومضى كله بدون أن ينبس أحد منهم بكلمة .

* * *

وأشرق الوداد بنور النهار ونظر مراد أفندى فوجد أنّ الخيام كلها سقطت ، ولكنها لم تتحرك كثيراً عن أماكنها الأصلية ، ومنها ما شبكت بأوتادها في الصخور المبعثرة بالوداد فعاقتها عن الحركة . وأثلج صدره عندما رأى الأكشاك ثابتة في مكانها لم تصب بسوء ، وأن الأرض لم تعد مغطاة إلا برشاوى بيضاء . . وماء ضحل لا يصح أن يمنعه عن النزول لتفقد حاجاته والبحث عن نقوده .

فقال :

- فيلحضر إليّ هنا على الفور ثلاثة من العمال ، يساعدوني في البحث عن حاجاتي بين الصخور .

فنها الجميع وأرادوا أن يشرحوا له خطورة النزول إلى الوادى في ذلك الوقت بالذات ، ولكنه قاطعهم قائلاً :

- إن « دولاي » الموجود في كشك المخزن به فواتير السلفة واستمارات المعهدة وإيصالات « الكهنة » وبه محاضر اللجان وصور الارتجاع ، فإذا أتلّفها الماء . . من منكم يكون المسئول ؟

وعادوا يحاولون إقناعه بأن هذه مرحلة من مراحل السيل . . لا يجوز النزول فيها فقاطعهم مرة ثانية وقال بعناد :

- إني أعلم من اللوائح والقوانين . . ما لا تعلمون .
وألقي بالبطانية التي كان يتدثر بها على الأرض وهب واقفاً ، ولكنهم تجمعوا حوله وأمسكوا به ومنعوه من النزول ، فجلس على مضض ، وهو يشعر بالسخط عليهم جميعاً . وتتابعت الأحداث بعد ذلك فحولت سخطه عليهم إلى شعور بالرّضا والامتنان . فقد تعلّم أن السيل قد يحدث على دفعتين ، الأولى يسميها البعض بالطلق الصغير ، وهو ما حدث في الليلة السابقة ، وأنهم في انتظار الطلق الكبير ، الذى قد يياغتهم في أى لحظة مهما طال الانتظار .

كذلك عرف يومها أن البحث بين الصخور عن حاجاتهم المفقودة في الفترة ما بين الدفعتين أمر مخوف بالخطر ، بسبب وجود الحشرات والتهابين الجريحة التي أقلقها السيل من رقادها الشتوى الطويل . . وحطم جحورها . . وقذف بها وبصغارها بين الصخور ، وعادة ما تعوقها الجلايد الكبيرة الموجودة في الوادى كما تعوق حاجات المعسكر ، وهم يعتقدون أن الثعابين والأفاعى الجريحة أشد فتكاً

بالإنسان لوعبت بها مما لو كانت سليمة . كما تعلم أن من أخطر ما يهدد حياته وهو يبحث عن حاجاته المفرقات التي كانت محفوظة في معسكر البعثة واجتاحتها السيل . . وقد تنفجر فيه علبة كاملة من الكبسول فتمزق لحمه وتفتت عظامه وتقلد بها في أماكن متفرقة ، كما فعلت بزميل لهم من قبل .

* * *

وأقاموا صلاة الظهر فوق الجبل ، وما كادوا ينتهون من دعواتهم التي تعقب الصلاة ، حتى وجدوا الماء يندفع من الروافد في وقت واحد . . وغطى الوادى وأغرقه كله وارتفع فيه حتى صاح أحدهم :

— إنه ليس سيلاً . . بل هو طوفان نوح .

وفي هذه المرة دمر الأكشاك وطهر الوادى تماماً من كل شيء لهم ، حتى الصندوق الحديدي الكبير الذى كانوا قد خلعوه من سيارة النقل وطرحوه أرضاً رأوه عائماً كأنه مركب ، وطفأ خزان المياه الحديدي الكبير أيضاً بما فيه من ماء وغاب عن أنظارهم ، وانقلبت سيارة النقل على جانبها بعد أن خوى الماء الأرض من تحتها .

وبعد أن انتهى السيل ، انقسموا إلى جماعتين : الأولى عازمت على السير في اتجاه مدينة القصير لإبلاغ المسئولين وطلب القوت الضرورى ، بعد أن تلفت السيارة الوحيدة التي كانت معهم . وجماعة أخرى كان عليها أن تبحث عن أشتات المعسكر المفقود ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه على بعد مسافة طويلة في اتجاه الشمال . ونحصى الخسائر . . وتكتب المحضر اللازم في مثل هذه الأمور .

* * *

حدث ذلك منذ خمسة عشر عاماً أويزيد . وأما أولئك القوم الذين ألفت بين قلوبهم السيول ، فقد فرقت بينهم الأيام والخطوب ، فمنهم من التحق ببعثة

جبلولوجية أخرى تعمل في مكان آخر من مجاهل الصحراء ، ومنهم من هاجر أو سافر للعمل في إحدى الدول العربية الشقيقة ، ومنهم من أبعدته السن القانونية أو أقعدته الشيخوخة فانتقل ليعيش في قريته يفلح الأرض أوليفتح دكاناً صغيراً فيها ، وغيرهم انقطعت عني أخبارهم فلا أعرف عن أحوالهم شيئاً .

وأما الجبلولوجي الشاب ، فقد أصبح الآن أستاذاً في إحدى الجامعات المصرية وقد اشتهر في الجامعة بأنه أستاذ كثير الشغب ، وله جولات لا تنتهي ضد الروتين ، وكل مشاكله مع إدارة الجامعة تنبع من أصل واحد . وهو أنه يؤمن بأن الجبلولوجي الحق . . لا يتخرج إلا في الصحراء وأن الخير كل الخير لتلاميذه أن يتدربوا تدريباً طويلاً في المناطق الجبلية البعيدة ، لذلك فهو دائماً يحب صحارى مصر ومعه تلاميذه . . ومعهم معسكر صغير . . يتنقلون به بين الجبال والسهول والأودية ومنذ فترة قريبة حط رحاله ومعه الطلبة . . وعددهم قليل . . في وادي الدباح ، وكان أول ما فعل أن بحث عن قبر الشيخ العبادي الطيب الذي حذّره من السيل قبل وقوعه ، بعد أن علم من أحد الرعاة أن المنية وافته قريباً من ذلك المكان فدفن تحت شجرة غير بعيدة ، وجلس الأستاذ خاشعاً أمام القبر وقرأ الفاتحة وأجزاء من القرآن الكريم على روح الراحل الأمين ، ولم يبعد بأساً في أن يتخذ من تقاليد العبادة ما يناسب المقام ، فوضع كمية من السكر والشاي وبعض الأكل المحفوظ بجوار القبر ، هدية منه للزائرين . . وعابري السبيل .

وعندما جلس ليرتاح من عناء العمل الشاق ، فوق جبل الدباح ، نظر إلى الوادي وحملق في مكان المعسكر القديم الذي لم يبق منه حتى الأطلال . نظر في صمت طويل . . لم يقطعه عليه أحد من تلاميذه ، ربما لشعور خفي غمرهم بأن الأستاذ يتعبد في محراب الذكريات . وإذا به يرى بعيون الذكرى . . المعسكر المفقود . . كاملاً بكل تفاصيله كأنه قائم حتى الآن . تذكر أصدقاءه القدامى أفراد

البعثة . . وحكايات كل منهم ونوادره . وجمالت عيناه في كل موضع من المعسكر
ووقف كثيراً أمام المكان الذى كانت فيه خيمة نومه .
وانتقل ببصره إلى الطرف الشرقى من المعسكر القديم . وإذا به يشعر بأسى
عميق على كلبه الوفى الذى دفتته السيول حياً ، وهو مقيد الحركة . . مكتم الفم . .
فمات نتيجة لوفائه . . وقسوة صاحبه .
وأخذ يتمم بين الفينة والفينة بكلام لا يسمعه تلاميذه .
فيقول :

— سبحان الله العزيز الحكيم . . ألهم سكان الصحراء صواباً لا يوجد فى
الكتب ، وعلم الفأر ما لا يعلم الإنسان .

* * *

قبل الشروق

« من زرع حصيد »

قول معروف . . ومعقول ، ولكنه في العادة لا ينطبق على من يعملون في مجال الثروة المعدنية ، ففي هذا المضمار تجد جيلا يزرع . . وجيلا آخر يحني الثمار ، ذلك لأن الفرق الزمني كبير بين أولئك الذين يقومون بمهمة البحث والتنقيب . . أى أفراد البعثة الجيولوجية ، وهؤلاء الذين يتولون عملية الاستخراج . . أى رجال المناجم .

تمضى أعوام طويلة . . يعيش المستكشفون خلالها متنقلين في مجاهل الصحراء ، وربما يقضون حياتهم كلها في البحث والتنقيب ، وعندما يعثرون على ثروة معدنية هامة ، يأتي دور الدراسات التفصيلية ، وهي دراسات مستفيضة تجرى على الموقع المكتشف . . قد تستغرق أعواماً أخرى ، وربما يمضى جيل أو أكثر

قبل أن تنتهى الإنشاءات اللازمة للمناجم والمساكن ، ووحدات تركيز الخام والإنتاج . . وإنشاء الخط الحديدى الذى يصل بين المنجم والعمران . . وهو ضرورى لنقل المعدات الثقيلة والمواد الخام . . هى فترة قصيرة من عمر الدولة . . ولكنها عادة ما تكون أطول من عمر الأفراد .

وتسلط أضواء التكريم على أولئك الذين يعملون فى المناجم الجديدة . . فى جوف الصحراء . . ويسمى زملاؤهم القدامى الذين اكتشفوا المكان الجديد . . فى غياهب النسيان . ربما أدركت بعضهم السن القانونية . . أو أقعدتهم الشيخوخة . . أو أمراض الصحراء وأمراض الاغتراب ، وغيرهم وافتهم المنية قبل أن يروا شمس الإنتاج والعمران تشرق على المكان الجديد . أما من كان حياً . . ولم يزل قادراً على العمل فإنه فى العادة يبقى فى تخصصه الذى تفرس عليه . . وهو الاستكشاف . . لذا فإنه يواصل السعى فى القفار . . بحثاً عن اكتشاف جديد .

وقد يقوده البحث ذات يوم إلى قمة جبل يشرف على مكان المنجم الذى اشترك فى اكتشافه أيام الشباب ، فإذا به ينظر إلى أسفل فى الوادى البعيد فىرى مدينة صغيرة عصرية . . أو قرية منجمية نموذجية . فتحل سعادة غامرة فى نفسه تزيل عنه مشاعر الوحشة والإرهاق ، ويمعن النظر إلى المدينة فى فخر وابتهاج . . وكأنه شيخ شق فى الحياة يرى ابنه الوحيد وقد تخرج من الجامعة فيشعر بأن عمره لم يذهب هباء . . وها هى ذى أمامه ثمار السعى والكفاح . ويمضى إلى القرية سريع الخطوات . . فيفيض عليه شعور طيب بالحُب والانتماء . . هذه بلدته التى قضى على أرضها أيامه الأولى . . يعود إليها بعد طول الغياب .

ولكنه يمر فى شوارعها غربياً لا يعرفه أحد . . ولا يعرف فيها أحداً ، يطلب قرية من الماء أو شيئاً من الدواء أو بعض الوقود لسيارته ، أو يبحث عن مطعم عام ليتناول فيه وجبة ساخنة وفاكهة طازجة . . تريح أمعاءه من الخبز اليابس والأكل

المحفوظ الذى أرهقة خلال الشهور الماضية ، وهو فى العادة لا يجد مثل ذلك المطعم . فالجميع يتناولون طعامهم فى نادى المنجم ، ولا يوجد محلات عامة يبتاع منها ما يريد . بل جمعية تعاونية لا تتعامل إلا مع موظفى الشركة . . وبالمواعيد . وقد يعترض طريقه بعض الحفراء ، لأنه رجل غريب فضلا عن ذقنه الطويل وشعره الأشعث المحمل بالأتربة والرمال ، ربما ظنوا أنه أحد الخارجين على القانون أو الأثقياء ، فيبرز لهم بطاقته ويشرح لهم أنه أحد الأفراد الذين يعملون فى بعثة جيولوجية تقوم بالتنقيب فى الصحراء . وعندما يعرف الناس هويته ويأمنون إليه . . يرحبون به ويصحبونه فى جولة قصيرة ليشاهد بلدتهم الجميلة التى تقع فى قلب الصحراء . وربما يدعوه بعضهم إلى شرب الشاي أو إلى تناول الطعام فى نادى الشركة ، وهناك . . يتحدث إليهم كالمجنون ، ويقول لهم إنه أول من وطئت قدمه هذا الوادى منذ ربع قرن أو يزيد ، فيلتفون حوله باهتمام وترحاب ، ويسأله شاب صغير :

— حدثنا يا صمنا كيف كانت هذه الأرض قبل أن يطأها منا أى إنسان .
فيشعر بسعادة فائقة لهذا السؤال ، وكأنه نال به كل التقدير والتكريم ويصمت قليلا ثم يقول :

— سبحان من له الدوام ، كل شئ تغير . . نعم كل شئ . والله يا بنى لولا هذه الرواسى الشاخخة التى تحيط بالوادى الفسيح لظننت أننى ضللت الطريق ، أو أننى انتقلت فى غمضة عين على ظهر البراق . . من جوف الصحراء المصرية إلى بلدة جميلة فى الريف الأوربى . لم تكن هناك يا ولدى عارات وحدائق ، أو طرق مرصوفة وخط سكة حديد ، أو حمام سباحة ومكتب بريد ، أو ناد أو مدرسة ، أو أزهار جميلة وأشجار . .
وهنا يتوقف مستدركا ثم يقول :



وأقبل الصيف . وصعب علينا الحصول على الماء . وأصبحت المسافة التي يقطعها الزورق ،
من أجل الوصول إلى القصر طويلاً . . . وكثرت أعطاله في الطريق

- بل كانت هنا شجرة واحدة . . في هذا المكان ، بالله عليكم لماذا قطعتموها . . إنها كانت عزيزة علينا ، ولنا عندها ذكريات .
ويقول :

- أما استراحه كبار الزائرين فقد كان مكانها « رجم » من الأحجار المرصوفة ، بنيناها لكي نتهدى به إلى مكان الاكتشاف . ثم يضحك قائلاً :
- ولم يكن هنا بالطبع نساء أو أطفال .
ويضئ في ذكرياته فيقول :

- وهل تعرفون الطرف الشرقي من البلد الذي تطلقون عليه . . « حى الشريف » إنه منسوب إلى سائق اسمه محمد الشريف ، احترقت سيارته ذات يوم في هذا المكان ونُجِّى بحمد الله . ويومها ضقت ذرعاً بالصحراء وتمردت على الجيولوجى رئيس البعثة ، رحمة الله عليه .

وبيات المستكشف القديم ليلته مُحاطاً بكل التكرم . . من جميع العاملين ، وفي الصباح يغادر البلدة ، ويصعد بسيارته الهضبة المناخمة ، وهو يشعر بقوة جسارة يكاد أن يقرع بها الجبال ، وينظر من فوق الجبل إلى القرية . . كأن العاملين بها أولاده ، والأطفال الذين يتزاحمون أمام المدرسة . . حفداؤه . وقد تغلغل تكريمهم له في أعماق نفسه ووجدانه ، هو تكريم طبيعى يشعر به رجال المناجم . . نحو البعثات الجيولوجية التى سبقتهم إلى الأماكن المجهولة ، نجده في كل أوان وكل مكان .

وأشهد أننى لاحظت ذلك التكرم في كل بلدة من بلاد المناجم . . التى قمت بزيارتها سواء في صحارى مصر أو في الدول الأجنبية ، كنت أرى في مكتب المدير صورتين ، الأولى قبل نشأة البلد . . مبين فيها معسكر صغير يتكون من خيام قليلة . . هو معسكر البعثة الجيولوجية التى اكتشفت هذا المنجم ، وأما الصورة الثانية فهى

لنفس الموقع بعد أن تم العمران وحل الرخاء . . وقد التقطت هذه الصورة الأخيرة للمدينة الجديدة من الجو فظهرت عماراتها العصرية . . وحدائقها الغناء . . في شكل خللاب . . ومكتوب على الصورة الأولى : « كيف كنا » ، وعلى الثانية : « وكيف أصبحنا » .

* * *

وسوف تشرق عما قريب . . على الجزء الأوسط من الصحراء الشرقية في مصر . . شمس الإنتاج . . إنتاج اليورانيوم . سوف نرى في بلاد العباددة طرقاً مرصوفة ومستعمرات سكنية وسكة حديد ، وبلاداً جديدة . وربما نسمع في المستقبل عن قرية منجمية حديثة اسمها مثلاً قرية « العطشان » نسبة إلى وادي العطشان ، أو قرية الدباح ، أو العرضية ، أو أم حيوط .

وقد تظهر مدينة صغيرة في وسط هذه القرى ويطلقون عليها اسم المعدن المستغل ليكون اسمها « مدينة اليورانيوم » ، على غرار « يورانيوم سیتی » في شمال كندا ، و « مدينة الحديد » التي تقع شمال الواحات البحرية .

كان العثور على اليورانيوم في مصر حلمًا وخيالاً يشبه المستحيل ، هكذا كان الرأي عند خبراء الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالأمم المتحدة عندما زاروا مصر في منتصف الخمسينيات ، والسبب في ذلك كما جاء في تقاريرهم « صعوبة المعيشة في الصحراء واستحالة التنقل في الأماكن المجهولة فيها » ولكن هذا الرأي لم يزد الإنسان المصري إلا إصراراً على تحقيق ذلك المستحيل .

وشهدت جبال المنطقة غزواً جريئاً من شبان يتسلقون قممها الوعرة ويمسحون حوافها القاتلة بكل دقة وإصرار ، كما شهدت طائرات استكشاف تجوب الاودية على ارتفاع منخفض خطير ، تسجل . . بأجهزة بالغة التعقيد . . قراءة الإشعاع في الجبال . . ومن وراء أولئك جميعاً جهاز قدير من رجال المعامل . . كانوا دائماً في



في معسكر البعثة . . قبل الخروج في إحدى رحلات الاستكشاف

معاملهم ساهرين .

ومرت الأعوام . . ونحن تنتقل بين السهول والجبال ، ما من جبل في الصحراء الشرقية الوسطى إلا وتسلقناه ، وما من هضبة إلا ومسحناها بأجهزتنا وأخذنا منها العينات اللازمة للتحليل ، وفي كل مكان كانت لنا بصمات من تلك الرحلات . . خنادق في الجبال ومغارات وكهوف عميقة الأغوار . وكنا في سعينا هذا نستخدم أجهزة حديثة نقيس بها درجة إشعاع الصخور . اسمها « السنتلوميترات » أى أجهزة العد الومضية . . وهى أكثر تطوراً من تلك الأجهزة المعروفة بعدادات « جييجر » . ومن هذه الأجهزة ، ما كان مُصمماً بحيث يركب على طائرة استكشاف ، أو على سيارة ، ونوع آخر كان صغير الحجم بحيث يحملها الإنسان على ظهره أو بين يديه ليصل به إلى الأهداف التى تغيب عن الطائرة ، وتعجز عن بلوغها السيارات .

كنا نخرج من المعسكر كل يوم قبل مشرق الشمس ونعود إليه بعد الغروب . واعتاد كل رجل أن يمضى يوماً عسيراً بين الجبال ، ويعود بلا نتائج تذكر . كنا كمن يبحث عن سمكة ضالة في المحيط . أصبحت النتائج السلبية لا تفرقنا . . ألفناها . . وألفنا معها اليأس ، ولكننا لم نكف عن السعى وكأننا أصبحنا فى غنى عن أى تشجيع ، حتى النتائج الإيجابية النادرة لم تكن تفرحنا ، وهى عبارة عن مواقع جديدة تكون درجة الإشعاع فيها مرتفعة بشكل ملحوظ ، لأننا نعرف أنهم سوف يتعرض بعد ذلك لاختبارات تفصيلية عسيرة ربما تلقى بها فى جانب السلبات ، وبلغى ذكرها من الخريطة . . وكأن الجهد الشاق الذى بذل من أجل اكتشافها لم يكن ، والأحداث التى عاصرتها قد محيت من حياة المستكشفين . ومع كل يوم من أيام الفشل . . كانت عزميتنا تزداد بغير سبب مفهوم ، وكأن الإرادة كانت مع اليأس فى سباق ، والعزيمة مع القنوط فى عناد . ربما كان وراء

ذلك « طاقة الاستكشاف » التي وهبها الله بنى الإنسان ليعينهم على السعى وحب المعرفة . ونخوض كل مكان جديد ، وجعلها سبحانه لا ترتبط بأى آمال فى الحياة . . لا الشهرة ولا الجدد ولا المال .

وبمرور الأعوام تجمعت النتائج الإيجابية على ندرتها فأصبحت كثيرة ، وازداد عدد المواقع التى ثبت فيها وجود اليورانيوم وأصبحت تحصى بالآلاف .
وأخذ معسكرنا يواصل الحركة ببطء نحو الغرب ، واستمر بنا الانتقال من مكان إلى آخر حتى أصبح التغيير هو الأمر الثابت والاستقرار لفترة ما فى أحد الأودية هو الأمر الغريب . وتوغلنا كثيراً فى جوف الصحراء ، وإذا شاطئ البحر الأحمر بعيداً ، والطريق إليه طويل ، وأقبل الصيف ، وصعب علينا الحصول على الماء ، وأصبحت المسافة التى يقطعها « اللورى » من أجل الوصول إلى القصير ، طويلة ، وكثرت أعطالها فى الطريق ، وكثيراً ما كان يخذله مكثف القصير ، فلا يرضى السائق أن يرجع إلينا بغير الماء فهو يعرف أننا نمر بليالي عسيرة من الظلم والانتظار . . فيسافر إلى قنا ، وعلى الرغم من هذا فكثيراً ما كنا نكتشف بعد رجوعه أن معظم الماء فقد أثناء الطريق بفعل « المطبات » التى تقذف به من الخزانات ، وربما وجدنا أن الخزانات نفسها قد كسرت من أسفل وأصبحت سخاوية تماماً من الماء .

وذات يوم من أيام القيظ ، وقد بلغ بنا العطش مداه بعد أن نفذ الماء كله ، وجمعنا المتبقى منه فى الأواني القلدة ، ولحس الناس صداً الماء فى قاع الخزان ، ومرّ يوم . . ثم يومان ونحن عن الكلام صائمون . . توفيراً للماء فى اللعب ، إذا بصمت الصحراء المهيبة ، يقطعها صوت يشبه صوت سيارة قادمة ، وخرج الناس من خيامهم مهللين ومكبرين . وصعدت فوق التل القريب ونظرت بالمنظار فلم أجد إلا الفراغ الكثيب ، إنه صوت سيمعناه بالظلمة وأحلام الارتواء ، فقد هبت الرياح



هذه راحة في أثناء البحث في الصحراء أثناء رحلة البحث في الصحراء

فجأة فأحدث احتكاكها بقمم الجبال صوتاً جسّمه أمل الحياة على ما نهوى
ونريد .

وبعد صمت طويل قال قائل منا :

- ألم يحن الوقت بعد . . لكى تحرروا أنفسكم من ربة المكثف الذى يمنحكم
الماء مرة ويحرمكم منه مرات ؟ كفوا عن الذهاب إلى القصير ، واهبطوا وادى النيل
واقصدوا النهر العظيم . . ماذا يضيرنا لو نتجه إلى الغرب بدلا من الشرق ؟ إن النيل
كريم أصيل ، ولن ترجعوا منه مرة خائبين ، ونظرنا إلى الخريطة فإذا الطريق لم يزل
إليه طويلا ، وإذا به جدّ عسير ، ولكن الرحلة مها كانت صعبة فى نهايتها الماء
مضمون .

ومنذ ذلك اليوم انقطعت صلتنا تماماً بشاطئ البحر الأحمر وأصبحت علاقتنا
كلية بمدينة «إدفو» ونقلنا عنواننا من مكتب بريد القصير إلى مكتب بريد إدفو .
ومضت أيامنا رتيبة ، لا يقطعها إلا فرحة وصول الماء ، كنا نشعر مع كل مرة
تصل فيها السيارة سالمة وكأننا بعثنا من جديد .

و ذات يوم وصلت هذه السيارة ، وفيها خطاب رسمى له أهمية كبيرة بالنسبة
لنا ، كل ما فيه أخبار سارة ، ومن الخطابات ما يكون نقطة تحول حقيقية فى
الحياة . وهكذا كان ذلك الخطاب بالنسبة لنا . يوجه قسم الجيولوجيا والخرائط
الذرية الشكر للبعثة . على ما اكتشفت من مواقع مشعة هامة .

ويبلغنا بأن وادى العطشان الذى عملنا فيه منذ سنين وهجرناه كما هجرنا غيره
من الأودية ، تقرر أن يبدأ فيه أول منجم تجريبى لليورانيوم . فى تاريخ مصر ،
كذلك تقرر وقف العمل فى البعثة لكى تستأنف عملها فى الحريف القادم فى مكان
آخر جديد .

وفي الخطاب خبر آخر يخصني : إنني رشحت للسفر إلى أوروبا .
وانتهت رحلتى . . في بلاد العبايدة ، لكي تبدأ رحلة جيولوجية جديدة . . في
القارة الأوروبية .

سمير محمد خواسك
كلية العلوم - أسوان

فهرس

الصفحة

٧	بداية الرحلات
١١	إلى بلاد العباددة
١٧	فى وادى عسل
٢٢	مجلس الحكم فى الصحراء
٣٣	فى وادى العطشان
٤٢	مجمع العباددة
٥٤	المسح الاجتماعى للمناطق النائية
٥٦	صالون فى الصحراء
٨٩	حكاية من الصحراء
٩٦	قصر البنات
٩٨	من قصص التمرد والعصيان
١١٤	الرحيل
١١٩	فى جبل أم نقاط

١٢٣	سائق الوزير
١٣١	الحكيم والذئب
١٣٦	سيول في وادي الدباح
١٥٠	قبل الشروق

١٩٨٢/٤٥٩٠	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٢٠١-٢	الترقيم الدولي

١/٨٢/٢٠٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

000000

